سلسلة نصوص تراثية للباحثين (٣٢٦)

اللطائف

من تفسير التحرير والتنوير

د/ يوسف بن حمود الحوشان

١٤٤٣هـ

نسخة أولية من غير ترتيب او مراجعة

ومتاح لكل أحد الاستفادة منها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اما بعد

فهذه نصوص جمعت باستخدام برنامج شاملة وورد من برمجيات الدكتور سعود العقيل بواسطة المكتبة الشاملة

معتمدة على توظيف الكلمة المفتاحية وتوفير النصوص للباحثين لتحريرها والاستفادة منها وهي مشاعة لمن يستفيد منها

وسيتبعها نصوص أخرى يسر الله نشرها والله الموفق

يوسف بن حمود الحوشان

yhoshan@gmail.com

https://t.me/dralhoshan تليجرام

١. ٢-"المقدمة التاسعة في أن المعاني التي تتحملها جمل القرآن تعتبر مرادة بها

إن العرب أمة جبلت على ذكاء القرائح وفطنة الأفهام، فعلى دعامة فطنتهم وذكائهم أقيمت أساليب كلامهم، وبخاصة كلام بلغائهم، ولذلك كان الإيجاز عمود بلاغتهم لاعتماد المتكلمين على أفهام السامعين كما يقال: لمحة دالة، لأجل ذلك كثر في كلامهم المجاز، والاستعارة، والتمثيل، والكناية، والتعريض، والاشتراك والتسامح في الاستعمال كالمبالغة، والاستطراد ومستتبعات التراكيب، والأمثال، والتلميح، والتمليح، واستعمال الجملة الخبرية في غير إفادة النسبة الخبرية، واستعمال الاستفهام في التقرير أو الإنكار، ونحو ذلك. وملاك ذلك كله توفير المعاني، وأداء ما في نفس المتكلم بأوضح عبارة وأخصرها ليسهل اعتلاقها بالأذهان وإذ قد كان القرآن وحيا من العلام سبحانه وقد أراد أن يجعله آية على صدق رسوله وتحدى بلغاء العرب بمعارضة أقصر سورة منه كما سيأتي في المقدمة العاشرة، فقد نسج نظمه نسجا بالغا منتهى ما تسمح به اللغة العربية من الدقائق **واللطائف** لفظا ومعنى بما يفي بأقصى ما يراد بلاغة إلى المرسل إليهم. فجاء القرآن على أسلوب أبدع مما كانوا يعهدون وأعجب، فأعجز بلغاء المعاندين عن معارضته ولم يسعهم إلا الإذعان، سواء في ذلك من آمن منهم مثل لبيد بن ربيعة وكعب بن زهير والنابغة الجعدي، ومن استمر على كفره عنادا مثل الوليد بن المغيرة. فالقرآن من جانب إعجازه يكون أكثر معاني من المعاني المعتادة التي يودعها البلغاء في كلامهم. وهو لكونه كتاب تشريع وتأديب وتعليم كان حقيقا بأن يودع فيه من المعاني والمقاصد أكثر ما تحتمله الألفاظ، في أقل ما يمكن من المقدار، بحسب ما تسمح به اللغة الوارد هو بها التي هي أسمح اللغات بهذه الاعتبارات، ليحصل تمام المقصود من الإرشاد الذي جاء لأجله في جميع نواحي الهدى، فمعتاد البلغاء إيداع المتكلم معنى يدعوه إليه غرض كلامه وترك غيره والقرآن ينبغي أن يودع من المعاني كل ما يحتاج السامعون إلى علمه وكل ما له حظ في البلاغة سواء كانت متساوية أم متفاوتة في البلاغة إذا كان المعنى الأعلى مقصودا وكان ما هو". (١)

٢. ٣-"وفي هذا إيماء إلى الاستكثار من الشكر على مجمل النعم، وتعريض بفظاعة كفر من كفروا بهذا المنعم، وتغليظ التهديد لهم. وتقدم نظيرها في سورة إبراهيم.

وجملة إن الله لغفور رحيم استئناف عقب به تغليظ الكفر والتهديد عليه تنبيها على تمكنهم من تدارك

---

(١) التحرير والتنوير ٩٣/١

أمرهم بأن يقلعوا عن الشرك، ويتأهبوا للشكر بما يطيقون، على عادة القرآن من تعقيب الزواجر بالرغائب كيلا يقنط المسرفون.

وقد خولف بين ختام هذه الآية وختام آية سورة إبراهيم، إذ وقع هنا لك وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار [سورة إبراهيم: ٣٤] لأن تلك جاءت في سياق وعيد وتهديد عقب قوله تعالى: ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفرا [سورة إبراهيم: ٢٨] فكان المناسب لها تسجيل ظلمهم وكفرهم بنعمة الله.

وأما هذه الآية فقد جاءت خطابا للفريقين كما كانت النعم المعدودة عليهم منتفعا بها كلاهما.

ثم كان من **اللطائف** أن قوبل الوصفان اللذان في آية سورة إبراهيم لظلوم كفار بوصفين هنا لغفور رحيم إشارة إلى أن تلك النعم كانت سببا لظلم الإنسان وكفره وهي سبب لغفران الله ورحمته. والأمر في ذلك منوط بعمل الإنسان.

[١٩]

[سورة النحل (١٦) : آية ١٩]

والله يعلم ما تسرون وما تعلنون (١٩)

عطف على جملة أفمن يخلق كمن لا يخلق [سورة النحل: ١٧] . فبعد أن أثبت أن الله منفرد بصفة الخلق دون غيره بالأدلة العديدة ثم باستنتاج ذلك بقوله: أفمن يخلق كمن لا يخلق انتقل هنا إلى إثبات أنه منفرد بعموم العلم.

ولم يقدم لهذا الخبر استدلال ولا عقب بالدليل لأنه مما دلت عليه أدلة الانفراد بالخلق، لأن خالق أجزاء الإنسان الظاهرة والباطنة يجب له أن". (١)

٣. ٤-"ومن غريب الاتفاق أن كان لحقيقة الثمانية اعتلاق بالمواضع الخمسة المذكورة من القرآن إما بلفظه كما هنا وآية الحاقة، وإما بالانتهاء إليه كما في آية براءة وآية التحريم، وإما بكون مسماه معدودا بعدد الثمانية كما في آية الزمر. ولقد يعد الانتباه إلى ذلك من **اللطائف**، ولا يبلغ أن يكون من

(١) التحرير والتنوير ١٤/١٢٤

المعارف. وإذا كانت كذلك ولم يكن لها ضابط مضبوط فليس من البعيد عد القاضي الفاضل منها آية سورة التحريم لأنها صادفت الثامنة في الذكر وإن لم تكن ثامنة في صفات الموصوفين، وكذلك لعد الثعلبي آية سورة الحاقة ومثل هذه **اللطائف** كالزهرة تشم ولا تحك.

وقد تقدم الكلام عليها عند قوله تعالى: والناهون عن المنكر في سورة براءة [١١٢] .

وجملة قل ربي أعلم بعدتهم مستأنفة استئنافا بيانيا لما تثيره جملة سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم إلى آخرها من ترقب تعيين ما يعتمد عليه من أمر عدتهم. فأجيب بأن يحال العلم بذلك على علام الغيوب. وإسناد اسم التفضيل إلى الله تعالى يفيد أن علم الله بعدتهم هو العلم الكامل وأن علم غيره مجرد ظن وحدس قد يصادف الواقع وقد لا يصادفه.

وجملة ما يعلمهم إلا قليل كذلك مستأنفة استئنافا بيانيا لأن الإخبار عن الله بأنه الأعلم يثير في نفوس السامعين أن يسألوا: هل يكون بعض الناس عالما بعدتهم علما غير كامل، فأجيب بأن قليلا من الناس يعلمون ذلك ولا محالة هم من أطلعهم الله على ذلك بوحي وعلى كل حال فهم لا يوصفون بالأعلمية لأن علمهم مكتسب من جهة الله الأعلم بذلك.". (١)

٤. ٥-"مراقبة ربهم. ويجوز أن يكون اللام للعلة، أي ذكر لأجل المتقين، أي كتاب ينتفع بما فيه المتقون دون غيرهم من الضالين.

ووصفهم بما يزيد معنى المتقين بيانا بقوله تعالى: الذين يخشون ربهم بالغيب وهو على نحو قوله تعالى: هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب في [سورة البقرة: ٢- ٣] .

والباء في قوله تعالى: بالغيب بمعنى (في) . والغيب: ما غاب عن عيون الناس، أي يخشون ربهم في خاصتهم لا يريدون بذلك رياء ولا لأجل خوف الزواجر الدنيوية والمذمة من الناس.

والإشفاق: رجاء حادث مخوف. ومعنى الإشفاق من الساعة: الإشفاق من أهوالها، فهم يعدون لها عدتها بالتقوى بقدر الاستطاعة.

وفيه تعريض بالذين لم يهتدوا بكتاب الله تعالى بدلالة مفهوم المخالفة لقوله تعالى:

الذين يخشون ربهم بالغيب. فمن لم يهتد بكتاب الله فليس هو من الذين يخشون ربهم بالغيب، وهؤلاء هم فرعون وقومه.

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/٢٩٣

وقد عقب هذا التعريض بذكر المقصود من سوق الكلام الناشئ هو عنه، وهو المقابلة بقوله تعالى: وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون.
واسم الإشارة يشير إلى القرآن لأن حضوره في الأذهان وفي التلاوة بمنزلة حضور ذاته. ووصفه القرآن بأنه ذكر لأن لفظ الذكر جامع لجميع الأوصاف المتقدمة كما تقدم عند قوله تعالى: وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم في [سورة النحل: ٤٤] .
ووصف القرآن بالمبارك يعم نواحي الخير كلها لأن البركة زيادة الخير فالقرآن كله خير من جهة بلاغة ألفاظه وحسنها وسرعة حفظه وسهولة تلاوته، وهو أيضا خير لما اشتمل عليه من أفنان الكلام والحكمة والشريعة **واللطائف** البلاغية، وهو في ذلك كله آية على". (١)

٥. ٦-"هذين الوجهين ما بين الحالين وضمير (بينهما) للمشرق والمغرب فكأنه قيل وما بين المشرق والمغرب وما بين المغرب والمشرق، أي ما يقع في خلال ذلك من الأحوال، فأما ما بين الشروق والغروب فالضحى والزوال والعصر والاصفرار، وأما ما بين الغروب والشروق فالشفق والفجر والإسفار كلها دلائل على تكوين ذلك النظام العجيب المتقن.
وقيل المراد برب المشرق والمغرب مالك الجهتين. وهذا التفسير يفيت مناسبة الكلام لمقام الاستدلال بعظيم ولا يلاقي التذييل الواقع بعده في قوله: إن كنتم تعقلون.
وتانك الجهتان هما منتهى الأرض المعروفة للناس يومئذ فكأنه قيل: رب طرفي الأرض، وهو كناية عن كون جميع الأرض ملكا لله. وهذا استدلال عرفي إذ لم يكونوا يعرفون يومئذ ملكا يملك ما بين المشرق والمغرب، وما كان ملك فرعون المؤله عندهم إلا لبلاد مصر والسودان.
والتذييل بجملة: إن كنتم تعقلون تنبيه لنظرهم العقلي ليعاودوا النظر فيدركوا وجه الاستدلال، أي إن كنتم تعملون عقولكم، ومن **اللطائف** جعل ذلك مقابل قول فرعون: إن رسولكم لمجنون، لأن الجنون يقابله العقل فكان موسى يقول لهم قولا لينا ابتداء، فلما رأى منهم المكابرة ووصفوه بالجنون خاشنهم في القول وعارض قول فرعون إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون [الشعراء: ٢٧] فقال: إن كنتم تعقلون أي إن كنتم أنتم
العقلاء، أي فلا تكونوا أنتم المجانين، وهذا كقول أبي تمام للذين قالا له: «لم تقول ما لا يفهم» قال:

---

(١) التحرير والتنوير ٩٠/١٧

«لم لا تفهمان ما يقال» .

[٢٩]

[سورة الشعراء (٢٦) : آية ٢٩]

قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين (٢٩)

لما لم يجد فرعون لحجاجه نجاحا ورأى شدة شكيمة موسى في الحق عدل عن الحجاج إلى التخويف ليقطع دعوة موسى من أصلها. وهذا شأن من قهرته الحجة، وفيه كبرياء أن ينصرف عن الجدل إلى التهديد.

واللام في قوله: لئن اتخذت إلها موطئة للقسم. والمعنى أن فرعون أكد وعيده بما يساوي اليمين المجملة التي تؤذن بها اللام الموطئة في اللغة العربية كأن". (١)

٦. ٧-"كان الشعر كذبا لا قرينة على مراد صاحبه فهو قبيح، وإن كان عليه قرينة كان كذبا معتذرا عنه فكان غير محمود.

وفي هذا إبداء للبون الشاسع بين حال الشعراء وحال النبيء صلى الله عليه وسلم الذي كان لا يقول إلا حقا ولا يصانع ولا يأتي بما يضلل الأفهام.

ومن **اللطائف** أن الفرزدق أنشد عند سليمان بن عبد الملك قوله:

فبتن بجانبي مصرعات ... وبت أفض أغلاق الختام

فقال سليمان: قد وجب عليك الحد. فقال: يا أمير المؤمنين قد درأ الله عني الحد بقوله: وأنهم يقولون ما لا يفعلون. وروي أن النعمان بن عدي بن نضلة كان عاملا لعمر بن الخطاب فقال شعرا:

من مبلغ الحسناء أن حليلها ... بميسان يسقى في زجاج وحنتم

إلى أن قال:

لعل أمير المؤمنين يسوءه ... تنادمنا بالجوسق المتهدم (١)

فبلغ ذلك عمر فأرسل إليه بالقدوم عليه وقال له: أي والله إني ليسوءني ذلك وقد وجب عليك الحد، فقال: يا أمير المؤمنين ما فعلت شيئا مما قلت وإنما كان فضلة من القول، وقد قال الله تعالى: وأنهم

---

(١) التحرير والتنوير ١٢١/١٩

يقولون ما لا يفعلون فقال له عمر: أما عذرك فقد درأ عنك الحد ولكن لا تعمل لي عملا أبدا وقد قلت ما قلت.

وقد كني باتباع الغاوين إياهم عن كونهم غاوين، وأفيد بتفظيع تمثيلهم بالإبل الهائمة تشويه حالتهم، وأن ذلك من أجل الشعر كما يؤذن به إناطة الخبر بالمشتق، فاقتضى ذلك أن الشعر منظور إليه في الدين بعين الغض منه، واستثناء إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات إلخ ... من عموم الشعراء، أي من حكم ذمهم. وبهذا الاستثناء تعين أن المذمومين هم شعراء المشركين الذين شغلهم الشعر عن سماع القرآن والدخول في الإسلام.

---

(١) الجوسق: القصر، كان أهل البطالة والخلاعة يأوون إلى القصور المتروكة.". [١]

٧. ٨-"الذين صبروا. والمراد: صبرهم على إقامة الدين وتحمل أذى المشركين، وقد علموا أنهم لاقوه فتوكلوا على ربهم ولم يعبأوا بقطيعة قومهم ولا بحرمانهم من أموالهم ثم فارقوا أوطانهم فرارا بدينهم من الفتن.

ومن **اللطائف** مقابلة غشيان العذاب للكفار من فوقهم ومن تحت أرجلهم بغشيان النعيم للمؤمنين من فوقهم بالغرف ومن تحتهم بالأنهار.

وتقديم المجرور على متعلقه من قوله: وعلى ربهم يتوكلون للاهتمام. وتقدم معنى التوكل عند قوله تعالى: فإذا عزمت فتوكل على الله في سورة آل عمران [١٥٩] [٦٠]

[سورة العنكبوت (٢٩) : آية ٦٠]

وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم (٦٠)

عطف على جملة: كل نفس ذائقة الموت [العنكبوت: ٥٧] فإن الله لما هون بها أمر الموت في مرضاة الله وكانوا ممن لا يعبأ بالموت علم أنهم يقولون في أنفسهم: إنا لا نخاف الموت ولكنا نخاف الفقر والضيعة. واستخفاف العرب بالموت سجية فيهم كما أن خشية المعرة من سجاياهم كما بيناه عند قوله تعالى: ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق [الإسراء: ٣١] فأعقب ذلك بأن ذكرهم بأن رزقهم على الله وأنه لا يضيعهم. وضرب لهم

---

(١) التحرير والتنوير ١٩/٢١٠

المثل برزق الدواب، وللمناسبة في قوله تعالى: إن أرضي واسعة [العنكبوت: ٥٦] من توقع الذين يهاجرون من مكة أن لا يجدوا رزقا في البلاد التي يهاجرون إليها، وهو أيضا مناسب لوقوعه عقب ذكر التوكل في قوله: وعلى ربهم يتوكلون [العنكبوت: ٥٩] ، وفي الحديث: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا» . ولعل ما في هذه الآية وما في الحديث مقصود به المؤمنون الأولون ضمن الله لهم رزقهم لتوكلهم عليه في تركهم أموالهم بمكة للهجرة إلى الله ورسوله. وتوكلهم هو حق التوكل، أي أكمله وأحزمه فلا يضع نفسه في هذه المرتبة من لم يعمل عملهم.". (١)

٨. ٩-"تموتن إلا وأنتم مسلمون [البقرة: ١٣٢] ، واحتراز ب الأولين عن آبائهم الذين كانوا في زمان ملوكهم بعد سليمان.

وجمع هذا الخبر تحريضا على إبطال عبادة «بعل» لأن في الطبع محبة الاقتداء بالسلف في الخير. وقد جمع إلياس من معه من أتباعه وجعل مكيدة لسدنة (بعل) فقتلهم عن آخرهم انتصارا للدين وانتقاما لمن قتلتهم (إيزابل) زوجة (آخاب) .

وفي «مفاتيح الغيب» : «كان الملقب بالرشيد الكاتب (١) يقول: لو قيل: أتدعون بعلا وتدعون أحسن الخالقين، أوهم أنه أحسن» ، أي أوهم كلام الرشيد أنه لو كانت كلمة (تدعون) عوضا عن تذرون. وأجاب الفخر بأن فصاحة القرآن ليست لأجل رعاية هذه التكاليف بل لأجل قوة المعاني وجزالة الألفاظ اهـ-. وهو جواب غير مقنع إذ لا سبيل إلى إنكار حسن موقع المحسنات البديعية بعد استكمال مقتضيات البلاغة. قال السكاكي:

«وأصل الحسن في جميع ذلك (أي ما ذكر من المحسنات البديعية) أن تكون الألفاظ توابع للمعاني لا أن تكون المعاني لها توابع، أعني أن لا تكون متكلفة» . فإذا سلمنا أن (تذرون) و (تدعون) مترادفان لم يكن سبيل إلى إبطال أن إيثار (تدعون) أنسب.

فالوجه إما أن يجاب بما قاله سعد الله محشي البيضاوي بأن الجناس من المحسنات فإنما يناسب كلاما صادرا في مقام الرضى لا في مقام الغضب والتهويل. يعني أن كلام إلياس المحكي هنا محكي عن مقام الغضب والتهويل فلا تناسبه **اللطائف** اللفظية (يعني بالنظر إلى حال المخاطبين به لأن كلامه محكي

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/٢١

في العربية بما يناسب مصدره في لغة قائله وذلك من دقائق الترجمة) ، وهو جواب دقيق، وإن كابر فيه الخفاجي بكلام لا يليق، وإن تأملته جزمت باختلاله. وقد أجيب بما يقتضي منع الترادف بين فعلي تذرون و «تدعون» بأن فعل

---

(١) لم أقف على ذكر كاتب يلقب بالرشيد وأحسب أنه راشد بن إسحاق بن راشد أبا حليمة الكاتب.

كان شاعرا ماجنا. ترجمه ياقوت وذكر أنه اتصل بالوزير عبد الملك بن الزيات وزير المعتصم (١٧٣/ ٢٣٣) .". (١)

٩. ١٠-"والتفريع هذا مزيد مناسبة لقوله آنفا ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم [محمد: ١١] الآية.

فالأمر في قوله: فاعلم كناية عن طلب العلم وهو العمل بالمعلوم، وذلك مستعمل في طلب الدوام عليه لأن النبيء صلى الله عليه وسلم قد علم ذلك وعلمه المؤمنون، وإذا حصل العلم بذلك مرة واحدة تقرر في النفس لأن العلم لا يحتمل النقيض فليس الأمر به بعد حصوله لطلب تحصيله بل لطلب الثبات فهو على نحو قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله

[النساء: ١٣٦] . وأما الأمر في قوله: واستغفر لذنبك فهو لطلب تجديد ذلك إن كان قد علمه النبيء صلى الله عليه وسلم من قبل وعمله أو هو لطلب تحصيله إن لم يكن فعله من قبل.

وذكر المؤمنات بعد للمؤمنين اهتمام بهن في هذا المقام وإلا فإن الغالب اكتفاء القرآن بذكر المؤمنين وشموله للمؤمنات على طريقة التغليب للعلم بعموم تكاليف الشريعة للرجال والنساء إلا ما استثني من التكاليف.

ومن **اللطائف** القرآنية أن أمر هنا بالعلم قبل الأمر بالعمل في قوله: واستغفر لذنبك. قال ابن عيينة لما سئل عن فضل العلم: ألم تسمع قوله حين بدأ به فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك. وترجم البخاري في كتاب العلم من «صحيحه» باب العلم

قبل القول والعمل لقول الله تعالى: فاعلم أنه لا إله إلا الله فبدأ بالعلم.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/١٦٨

وما يستغفر منه النبيء صلى الله عليه وسلم ليس من السيئات لعصمته منها، وإنما هو استغفار من الغفلات ونحوها، وتسميته بالذنب في الآية إما محاكاة لما كان يكثر

النبيء صلى الله عليه وسلم أن يقوله: (اللهم اغفر لي خطيئتي)

وإنما كان يقوله في مقام التواضع، وإما إطلاق لاسم الذنب على ما يفوت من الازدياد في العبادة مثل أوقات النوم والأكل، وإطلاقه على ما عناه

النبيء صلى الله عليه وسلم في قوله: «إنه ليغان (١) على قلبي وإني أستغفر الله في اليوم مائة مرة

---

(١) يغان، أي يغام ويغشى. وفسروا ذلك بالغفلات عن الذكر.". (١)

١٠. ١١-"والذين كفروا: هم الذين ظلموا، عدل عن ضميرهم إلى الاسم الظاهر لما فيه من تأكيد الاسم السابق تأكيدا بالمرادف، مع ما في صفة الكفر من الإيماء إلى أنهم لم يشكروا نعمة خالقهم.

واليوم الذي أوعدوه هو زمن حلول العذاب فيحتمل أن يراد يوم القيامة ويحتمل حلول العذاب في الدنيا، وأيا ما كان فمضمون هذه الجملة مغاير لمضمون التي قبلها.

وإضافة (يوم) إلى ضميرهم للدلالة على اختصاصه بهم، أي هو معين لجزائهم كما أضيف يوم إلى ضمير المؤمنين في قوله تعالى: وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون [الأنبياء: ١٠٣] .

واليوم: يصدق بيوم القيامة، ويصدق بيوم بدر الذي استأصل الله فيه شوكتهم.

ولما كان المضاف إليه ضمير الكفار المعينين وهم كفار مكة ترجح أن يكون المراد من هذا اليوم يوما خاصا بهم وإنما هو يوم بدر لأن يوم القيامة لا يختص بهم بل هو عام لكفار الأمم كلهم بخلاف اليوم الذي في قوله في سورة الأنبياء [١٠٣] : وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون لأن ضمير الخطاب فيها عائد إلى الذين سبقت لهم منا الحسنى [الأنبياء: ١٠١] كلهم.

وفي الآية من **اللطائف** تمثيل ما سيصيب الذين كفروا بالذنوب، والذنوب يناسب القليب وقد كان مثواهم يوم بدر قليب بدر الذي رميت فيه أشلاء سادتهم وهو اليوم القائل فيه شداد بن الأسود الليثي المكنى أبا بكر يرثي قتلاهم:

وماذا بالقليب قليب بدر ... من الشيزى تزين بالسنام

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/١٠٥

تحيي بالسلامة أم بكر ... وهل لي بعد قومي من سلام

ولعل هذا مما يشمل قول النبيء صلى الله عليه وسلم حين وقف على القليب يوم بدر قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا [الأعراف: ٤٤] .". (١)

١١. ١٢-"وإيثار المضارع في قوله: يعلم للدلالة على استمرار ذلك العلم وتجدده وذلك إيذان بأنه بمحل الرضى منه.

وفي ضده قوله: قد يعلم الله المعوقين منكم [الأحزاب: ١٨] لأنه في معرض التوبيخ، أي لم يزل عالما بذلك حينا فحينا لا يخفى عليه منه حصة.

وأدنى أصله أقرب، من الدنو، استعير للأقل لأن المسافة التي بين الشيء والأدنى منه قليلة، وكذلك يستعار الأبعد للأكثر.

وهو منصوب على الظرفية لفعل تقوم، أي تقوم في زمان يقدر أقل من ثلثي الليل وذلك ما يزيد على نصف الليل وهو ما اقتضاه قوله تعالى: أو زد عليه [المزمل: ٤] .

وقرأ الجمهور: ثلثي بضم اللام على الأصل. وقرأه هشام عن ابن عامر بسكون اللام على التخفيف لأنه عرض له بعض الثقل بسبب التثنية.

وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب ونصفه وثلثه بخفضهما عطفا على ثلثي الليل، أي أدنى من نصفه وأدنى من ثلثه.

وقرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بنصب ونصفه وثلثه على أنهما منصوبان على المفعول ل تقوم، أي تقوم ثلثي الليل، وتقوم نصف الليل، وتقوم ثلث الليل، بحيث لا ينقص عن النصف وعن الثلث. وهذه أحوال مختلفة في قيام النبيء صلى الله عليه وسلم بالليل تابعة لاختلاف أحوال الليالي والأيام في طول بعضها وقصر بعض وكلها داخلة تحت التخيير الذي خيره الله في قوله قم الليل إلا قليلا [المزمل: ٢] إلى قوله: أو زد عليه [المزمل: ٤] .

وبه تظهر مناسبة تعقيب هذه الجملة بالجملة المعترضة، وهي جملة والله يقدر الليل والنهار أي قد علمها الله كلها وأنبأه بها. فلا يختلف المقصود باختلاف القراءات. فمن العجاب قول الفراء أن

---

(١) التحرير والتنوير ٣٢/٢٧

النصب أشبه بالصواب.

وطائفة عطف على اسم إن بالرفع وهو وجه جائز إذا كان بعد ذكر خبر إن لأنه يقدر رفعه حينئذ على الاستئناف كما في قوله تعالى: أن الله بريء من المشركين ورسوله [التوبة: ٣] . وهو من **اللطائف** إذا كان اتصاف الاسم والمعطوف". (١)

١٢. ١٣-"بسم الله الرحمن الرحيم

٨٣- سورة المطففين

سميت هذه السورة في كتب السنة وفي بعض التفاسير «سورة ويل للمطففين» ، وكذلك ترجمها البخاري في كتاب التفسير من «صحيحه» ، والترمذي في «جامعه» .

وسميت في كثير من كتب التفسير والمصاحف «سورة المطففين» اختصارا.

ولم يذكرها في «الإتقان» في عداد السور ذوات أكثر من اسم وسماها «سورة المطففين» وفيه نظر.

وقد اختلف في كونها مكية أو مدنية أو بعضها مكي وبعضها مدني. فعن ابن مسعود والضحاك ومقاتل في رواية عنه: أنها مكية، وعن ابن عباس في الأصح عنه وعكرمة والحسن والسدي ومقاتل في رواية أخرى عنه: أنها مدنية، قال: وهي أول سورة نزلت بالمدينة، وعن ابن عباس في رواية عنه وقتادة: هي مدنية إلا ثمان آيات من آخرها من قوله: إن الذين أجرموا [المطففين: ٢٩] إلى آخرها.

وقال الكلبي وجابر بن زيد: نزلت بين مكة والمدينة فهي لذلك مكية، لأن العبرة في المدني بما نزل بعد الهجرة على المختار من الأقوال لأهل علم القرآن.

قال ابن عطية: احتج جماعة من المفسرين على أنها مكية بذكر الأساطير فيها أي قوله: إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين [القلم: ١٥] . والذي نختاره: أنها نزلت قبل الهجرة لأن معظم ما اشتملت عليه التعريض بمنكري البعث.

ومن **اللطائف** أن تكون نزلت بين مكة والمدينة لأن التطفيف كان فاشيا في البلدين.

وقد حصل من اختلافهم أنها: إما آخر ما أنزل بمكة، وإما أول ما أنزل بالمدينة، والقول بأنها نزلت

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨١/٢٩

بين مكة والمدينة قول حسن.". (١)

١٣. ١٤-"وكرم. والضعف- بضم الضاد وفتحها- ضد القوة في البدن، وهما هنا مجازان، فالأول أقرب إلى خور العزيمة، ودبيب اليأس في النفوس والفكر، والثاني أقرب إلى الاستسلام والفشل في المقاومة.

وأما الاستكانة فهي الخضوع والمذلة للعدو. ومن **اللطائف** ترتيبها في الذكر على حسب ترتيبها في الحصول: فإنه إذا خارت العزيمة فشلت الأعضاء، وجاء الاستسلام، فتبعته المذلة والخضوع للعدو.

واعلموا أنه إذا كان هذا شأن أتباع الأنبياء، وكانت النبوءة هديا وتعليما، فلا بدع أن يكون هذا شأن أهل العلم، وأتباع الحق، أن لا يوهنهم، ولا يضعفهم، ولا

يخضعهم، مقاومة مقاوم، ولا أذى حاسد، أو جاهل،

وفي الحديث الصحيح، في «البخاري» : أن خبابا قال للنبيء صلى الله عليه وسلم: «لقد لقينا من المشركين شدة ألا تدعو الله» فقعد وهو محمر وجهه فقال: «لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه»

الحديث.

وقوله تعالى: وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا الآية عطف على فما وهنوا لأنه لما وصفهم برباطة الجأش، وثبات القلب، وصفهم بعد ذلك بما يدل على الثبات من أقوال اللسان التي تجري عليه عند الاضطراب والجزع، أي أن ما أصابهم لم يخالجهم بسببه تردد في صدق وعد الله، ولا بدر منهم تذمر، بل علموا أن ذلك لحكمة يعلمها سبحانه، أو لعله كان جزاء على تقصير منهم في القيام بواجب نصر دينه، أو في الوفاء بأمانة التكليف، فلذلك ابتهلوا إليه عند نزول المصيبة بقولهم: ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا خشية أن يكون ما أصابهم جزاء على ما فرط منهم، ثم سألوه النصر وأسبابه ثانيا فقالوا: وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فلم يصدهم ما لحقهم من الهزيمة عن رجاء النصر،

وفي «الموطأ» ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول: دعوت

---

(١) التحرير والتنوير ١٨٧/٣٠

فلم يستجب لي»

فقصر قولهم في تلك الحالة التي يندر". (١)

١٤. ١٥-"في قطيفة حمراء أو في سيف لا يستقيم هنا لبعد ما بين غزوة بدر وغزوة أحد فضلا على ما ذكره بعضهم من نزول هذه الآية في حرص الأعراب على قسمة الغنائم يوم حنين الواقع بعد غزوة أحد بخمس سنين.

وقرأ جمهور العشرة: يغل- بضم التحتية وفتح الغين- وقرأه ابن كثير، وأبو عمرو وعاصم- بفتح التحتية وضم الغين-.

والفعل مشتق من الغلول وهو أخذ شيء من الغنيمة بدون إذن أمير الجيش، والغلول مصدر غير قياسي، ويطلق الغلول على الخيانة في المال مطلقا.

وصيغة وما كان لنبي أن يغل صيغة جحود تفيد مبالغة النفي. وقد تقدم القول فيها عند قوله تعالى: ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة [آل عمران: ٧٩] في هذه السورة فإذا استعملت في الإنشاء كما هنا أفادت المبالغة في النهي. والمعنى على قراءة الجمهور نهي جيش النبيء عن أن يغلو لأن الغلول في غنائم النبيء صلى الله عليه وسلم غلول للنبيء، إذ قسمة الغنائم إليه، وأما على قراءة ابن كثير وأبي عمرو وعاصم فمعنى أن النبيء لا يغل أنه لا يقع الغلول في جيشه فإسناد الغلول إلى النبيء مجاز عقلي لملابسة جيش النبيء نبيئهم ولك أن تجعله على تقدير مضاف. والتقدير: ما كان لجيش نبيء أن يغل.

ولبعض المفسرين من المتقدمين ومن بعدهم تأويلات للمعنى على هذه القراءة فيها سماجة.

ومعنى ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة أنه يأتي به مشهرا مفضوحا بالسرقة.

ومن اللطائف ما في البيان والتبيين للجاحظ: أن مزيدا- رجلا من الأعراب- سرق نافجة مسك فقيل له: كيف تسرقها وقد قال الله تعالى: ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة؟ فقال: إذن أحملها طيبة الريح خفيفة المحمل. وهذا تلميح وتلقي المخاطب بغير ما يترقب. وقريب منه ما حكي عن عبد الله بن مسعود والدرك على من حكاه قالوا:

---

(١) التحرير والتنوير ٤/١١٩

لما بعث إليه عثمان ليسلم". (١)

.١٥ ١٦-"ومن **اللطائف** ما ذكره ابن هشام، في شرح قصيدة كعب بن زهير عند قول كعب:

لكنها خلة قد سيط من دمها ... فجع وولع وإخلاف وتبديل

أن الزمخشري قال: إنه رأى نفسه في النوم يقول: العداوة مشتقة من عدوة الوادي، أي جانبه، لأن المتعاديين يكون أحدهما مفارقا للآخر فكأن كل واحد منهما على عدوة اه. فيكون مشتقا من الاسم الجامد وهو بعيد.

وإلقاء العداوة والبغضاء بينهم كان عقابا في الدنيا لقوله: إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون جزاء على نكثهم العهد. وأسباب العداوة والبغضاء شدة الاختلاف: فتكون من اختلافهم في نحل الدين بين يعاقبة، وملكانية، ونسطورية، وهراتقة (بروتستانت) وتكون من التحاسد على السلطان ومتاع الدنيا، كما كان بين ملوك النصرانية، وبينهم وبين رؤساء ديانتهم.

فإن قيل: كيف أغريت بينهم العداوة وهم لم يزالوا إلبا على المسلمين؟ فجوابه: أن العداوة ثابتة بينهم في الدين بانقسامهم فرقا، كما قدمناه في سورة النساء [١٧١] عند قوله تعالى: وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وذلك الانقسام يجر إليهم العداوة وخذل بعضهم بعضا. ثم إن دولهم كانت منقسمة ومتحاربة، ولم تزل كذلك، وإنما تألبوا في

الحروب الصليبية على المسلمين ثم لم يلبثوا أن تخاذلوا وتحاربوا، ولا يزال الأمر بينهم كذلك إلى الآن. وكم ضاعت مساعي الساعين في جمعهم على كلمة واحدة وتأليف اتحاد بينهم، وكان اختلافهم لطفا بالمسلمين في مختلف عصور التاريخ الإسلامي، على أن اتفاقهم على أمة أخرى لا ينافي تمكن العداوة فيما بينهم، وكفى بذلك عقابا لهم على نسيانهم ما ذكروا به.". (٢)

.١٦ ١-"ويشهد لهذا قوله تعالى: ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا [الفرقان: ٣٣]
.

فأما إذا كان فعل المضاعف للتعدية فإن إفادته التكثير مختلف فيها، والتحقيق أن

---

(١) التحرير والتنوير ١٥٥/٤

(٢) التحرير والتنوير ١٤٩/٦

المتكلم قد يعدل عن تعدية الفعل بالهمزة إلى تعديته بالتضعيف لقصد الدلالة على التكثير لأن المضاعف قد عرف بتلك الدلالة في حالة كونه فعلا لازما فمقارنته تلك الدلالة عند استعماله للتعدية مقارنة تبعية، ولذلك قال العلامة الزمخشري في خطبة «الكشاف» «الحمد لله الذي أنزل القرآن كلاما مؤلفا منظما، ونزله على حسب المصالح منجما» فقال المحققون من شراحه: جمع بين أنزل ونزل لما في نزل من الدلالة على التكثير، الذي يناسب ما أراده العلامة من التدريج والتنجيم.

وأنا أرى أن استفادة معنى التكثير في حال استعمال التضعيف للتعدية أمر من مستتبعات الكلام حاصل من قرينة عدول المتكلم البليغ عن المهموز الذي هو خفيف إلى المضعف الذي هو ثقيل، فذلك العدول قرينة على المراد وكذلك الجمع بينهما في مثل كلام «الكشاف» قرينة على إرادة التكثير.

وعزا شهاب الدين القرافي في أول «أنواء البروق» إلى بعض مشايخه أن العرب فرقوا بين فرق بالتخفيف وفرق بالتشديد، فجعلوا الأول للمعاني والثاني للأجسام بناء على أن كثرة الحروف تقتضي زيادة المعنى أو قوته، والمعاني لطيفة يناسبها المخفف، والأجسام كثيفة يناسبها التشديد، واستشكله هو بعدم اطراده، وهو ليس من التحرير بالمحل اللائق، بل هو أشبه **باللطائف** منه بالحقائق، إذ لم يراع العرب في هذا الاستعمال معقولا ولا محسوسا وإنما راعوا الكثرة الحقيقية أو المجازية كما قررنا، ودل عليه استعمال القرآن، ألا ترى أن الاستعمالين ثابتان في الموضع الواحد، كقوله تعالى:

وقرآنا فرقناه [الإسراء: ١٠٦] قرىء بالتشديد والتخفيف، وقال تعالى حكاية لقول المؤمنين: لا نفرق بين أحد من رسله [البقرة: ٢٨٥] وقال لبيد:

فمضى وقدمها وكانت عادة ... منه إذا هي عردت إقدامها

فجاء بفعل قدم وبمصدر أقدم، وقال سيبويه: «إن فعل وأفعل يتعاقبان» على أن التفرقة عند مثبتها، تفرقة في معنى الفعل لا في حالة مفعوله بالأجسام.

والتفسير في الاصطلاح نقول: هو اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن وما يستفاد منها باختصار أو توسع.". (١)

١٧. ٢-"المقدمة التاسعة في أن المعاني التي تتحملها جمل القرآن تعتبر مرادة بها

إن العرب أمة جبلت على ذكاء القرائح وفطنة الأفهام، فعلى دعامة فطنتهم وذكائهم أقيمت أساليب

---

(١) التحرير والتنوير ١١/١

كلامهم، وبخاصة كلام بلغائهم، ولذلك كان الإيجاز عمود بلاغتهم لاعتماد المتكلمين على أفهام السامعين كما يقال: لمحة دالة، لأجل ذلك كثر في كلامهم المجاز، والاستعارة، والتمثيل، والكناية، والتعريض، والاشتراك والتسامح في الاستعمال كالمبالغة، والاستطراد ومستتبعات التراكيب، والأمثال، والتلميح، والتمليح، واستعمال الجملة الخبرية في غير إفادة النسبة الخبرية، واستعمال الاستفهام في التقرير أو الإنكار، ونحو ذلك. وملاك ذلك كله توفير المعاني، وأداء ما في نفس المتكلم بأوضح عبارة وأخصرها ليسهل اعتلاقها بالأذهان وإذ قد كان القرآن وحيا من العلام سبحانه وقد أراد أن يجعله آية على صدق رسوله وتحدى بلغاء العرب بمعارضة أقصر سورة منه كما سيأتي في المقدمة العاشرة، فقد نسج نظمه نسجا بالغا منتهى ما تسمح به اللغة العربية من الدقائق **واللطائف** لفظا ومعنى بما يفي بأقصى ما يراد بلاغة إلى المرسل إليهم. فجاء القرآن على أسلوب أبدع مما كانوا يعهدون وأعجب، فأعجز بلغاء المعاندين عن معارضته ولم يسعهم إلا الإذعان، سواء في ذلك من آمن منهم مثل لبيد بن ربيعة وكعب بن زهير والنابغة الجعدي، ومن استمر على كفره عنادا مثل الوليد بن المغيرة. فالقرآن من جانب إعجازه يكون أكثر معاني من المعاني المعتادة التي يودعها البلغاء في كلامهم. وهو لكونه كتاب تشريع وتأديب وتعليم كان حقيقا بأن يودع فيه من المعاني والمقاصد أكثر ما تحتمله الألفاظ، في أقل ما يمكن من المقدار، بحسب ما تسمح به اللغة الوارد هو بها التي هي أسمح اللغات بهذه الاعتبارات، ليحصل تمام المقصود من الإرشاد الذي جاء لأجله في جميع نواحي الهدى، فمعتاد البلغاء إيداع المتكلم معنى يدعوه إليه غرض كلامه وترك غيره والقرآن ينبغي أن يودع من المعاني كل ما يحتاج السامعون إلى علمه وكل ما له حظ في البلاغة سواء كانت متساوية أم متفاوتة في البلاغة إذا كان المعنى الأعلى مقصودا وكان ما هو". (١)

١٨. ٣-"وفي هذا إيماء إلى الاستكثار من الشكر على مجمل النعم، وتعريض بفظاعة كفر من كفروا بهذا المنعم، وتغليظ التهديد لهم. وتقدم نظيرها في سورة إبراهيم.

وجملة إن الله لغفور رحيم استئناف عقب به تغليظ الكفر والتهديد عليه تنبيها على تمكنهم من تدارك أمرهم بأن يقلعوا عن الشرك، ويتأهبوا للشكر بما يطيقون، على عادة القرآن من تعقيب الزواجر بالرغائب كيلا يقنط المسرفون.

---

(١) التحرير والتنوير ٩٣/١

وقد خولف بين ختام هذه الآية وختام آية سورة إبراهيم، إذ وقع هنا لك وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار [سورة إبراهيم: ٣٤] لأن تلك جاءت في سياق وعيد وتهديد عقب قوله تعالى: ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفرا [سورة إبراهيم: ٢٨] فكان المناسب لها تسجيل ظلمهم وكفرهم بنعمة الله.

وأما هذه الآية فقد جاءت خطابا للفريقين كما كانت النعم المعدودة عليهم منتفعا بها كلاهما.

ثم كان من **اللطائف** أن قوبل الوصفان اللذان في آية سورة إبراهيم لظلوم كفار بوصفين هنا لغفور رحيم إشارة إلى أن تلك النعم كانت سببا لظلم الإنسان وكفره وهي سبب لغفران الله ورحمته. والأمر في ذلك منوط بعمل الإنسان.

[١٩]

[سورة النحل (١٦) : آية ١٩]

والله يعلم ما تسرون وما تعلنون (١٩)

عطف على جملة أفمن يخلق كمن لا يخلق [سورة النحل: ١٧] . فبعد أن أثبت أن الله منفرد بصفة الخلق دون غيره بالأدلة العديدة ثم باستنتاج ذلك بقوله: أفمن يخلق كمن لا يخلق انتقل هنا إلى إثبات أنه منفرد بعموم العلم.

ولم يقدم لهذا الخبر استدلال ولا عقب بالدليل لأنه مما دلت عليه أدلة الانفراد بالخلق، لأن خالق أجزاء الإنسان الظاهرة والباطنة يجب له أن". (١)

١٩. ٤-"ومن غريب الاتفاق أن كان لحقيقة الثمانية اعتلاق بالمواضع الخمسة المذكورة من القرآن إما بلفظه كما هنا وآية الحاقة، وإما بالانتهاء إليه كما في آية براءة وآية التحريم، وإما بكون مسماه معدودا بعدد الثمانية كما في آية الزمر. ولقد يعد الانتباه إلى ذلك من **اللطائف**، ولا يبلغ أن يكون من المعارف. وإذا كانت كذلك ولم يكن لها ضابط مضبوط فليس من البعيد عد القاضي الفاضل منها آية سورة التحريم لأنها صادفت الثامنة في الذكر وإن لم تكن ثامنة في صفات الموصوفين، وكذلك

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٤/١٤

لعد الثعلبي آية سورة الحاقة ومثل هذه **اللطائف** كالزهرة تشم ولا تحك.

وقد تقدم الكلام عليها عند قوله تعالى: والناهون عن المنكر في سورة براءة [١١٢] .

وجملة قل ربي أعلم بعدتهم مستأنفة استئنافا بيانيا لما تثيره جملة سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم إلى آخرها من ترقب تعيين ما يعتمد عليه من أمر عدتهم. فأجيب بأن يحال العلم بذلك على علام الغيوب. وإسناد اسم التفضيل إلى الله تعالى يفيد أن علم الله بعدتهم هو العلم الكامل وأن علم غيره مجرد ظن وحدس قد يصادف الواقع وقد لا يصادفه.

وجملة ما يعلمهم إلا قليل كذلك مستأنفة استئنافا بيانيا لأن الإخبار عن الله بأنه الأعلم يثير في نفوس السامعين أن يسألوا: هل يكون بعض الناس عالما بعدتهم علما غير كامل، فأجيب بأن قليلا من الناس يعلمون ذلك ولا محالة هم من أطلعهم الله على ذلك بوحي وعلى كل حال فهم لا يوصفون بالأعلمية لأن علمهم مكتسب من جهة الله الأعلم بذلك.". (١)

٢٠. ٥-"مراقبة ربهم. ويجوز أن يكون اللام للعلة، أي ذكر لأجل المتقين، أي كتاب ينتفع بما فيه المتقون دون غيرهم من الضالين.

ووصفهم بما يزيد معنى المتقين بيانا بقوله تعالى: الذين يخشون ربهم بالغيب وهو على نحو قوله تعالى: هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب في [سورة البقرة: ٢- ٣] .

والباء في قوله تعالى: بالغيب بمعنى (في) . والغيب: ما غاب عن عيون الناس، أي يخشون ربهم في خاصتهم لا يريدون بذلك رياء ولا لأجل خوف الزواجر الدنيوية والمذمة من الناس.

والإشفاق: رجاء حادث مخوف. ومعنى الإشفاق من الساعة: الإشفاق من أهوالها، فهم يعدون لها عدتها بالتقوى بقدر الاستطاعة.

وفيه تعريض بالذين لم يهتدوا بكتاب الله تعالى بدلالة مفهوم المخالفة لقوله تعالى:

الذين يخشون ربهم بالغيب. فمن لم يهتد بكتاب الله فليس هو من الذين يخشون ربهم بالغيب، وهؤلاء هم فرعون وقومه.

وقد عقب هذا التعريض بذكر المقصود من سوق الكلام الناشئ هو عنه، وهو المقابلة بقوله تعالى: وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩٣/١٥

واسم الإشارة يشير إلى القرآن لأن حضوره في الأذهان وفي التلاوة بمنزلة حضور ذاته. ووصفه القرآن بأنه ذكر لأن لفظ الذكر جامع لجميع الأوصاف المتقدمة كما تقدم عند قوله تعالى: وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم في [سورة النحل: ٤٤] .

ووصف القرآن بالمبارك يعم نواحي الخير كلها لأن البركة زيادة الخير فالقرآن كله خير من جهة بلاغة ألفاظه وحسنها وسرعة حفظه وسهولة تلاوته، وهو أيضا خير لما اشتمل عليه من أفنان الكلام والحكمة والشريعة **واللطائف** البلاغية، وهو في ذلك كله آية على". (١)

٢١. ٦-"هذين الوجهين ما بين الحالين وضمير (بينهما) للمشرق والمغرب فكأنه قيل وما بين المشرق والمغرب وما بين المغرب والمشرق، أي ما يقع في خلال ذلك من الأحوال، فأما ما بين الشروق والغروب فالضحى والزوال والعصر والاصفرار، وأما ما بين الغروب والشروق فالشفق والفجر والإسفار كلها دلائل على تكوين ذلك النظام العجيب المتقن.

وقيل المراد برب المشرق والمغرب مالك الجهتين. وهذا التفسير يفيت مناسبة الكلام لمقام الاستدلال بعظيم ولا يلاقي التذييل الواقع بعده في قوله: إن كنتم تعقلون.

وتانك الجهتان هما منتهى الأرض المعروفة للناس يومئذ فكأنه قيل: رب طرفي الأرض، وهو كناية عن كون جميع الأرض ملكا لله. وهذا استدلال عرفي إذ لم يكونوا يعرفون يومئذ ملكا يملك ما بين المشرق والمغرب، وما كان ملك فرعون المؤله عندهم إلا لبلاد مصر والسودان.

والتذييل بجملة: إن كنتم تعقلون تنبيه لنظرهم العقلي ليعاودوا النظر فيدركوا وجه الاستدلال، أي إن كنتم تعملون عقولكم، ومن **اللطائف** جعل ذلك مقابل قول فرعون: إن رسولكم لمجنون، لأن الجنون يقابله العقل فكان موسى يقول لهم قولا لينا ابتداء، فلما رأى منهم المكابرة ووصفوه بالجنون خاشنهم في القول وعارض قول فرعون إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون [الشعراء: ٢٧] فقال: إن كنتم تعقلون أي إن كنتم أنتم

العقلاء، أي فلا تكونوا أنتم المجانين، وهذا كقول أبي تمام للذين قالا له: «لم تقول ما لا يفهم» قال: «لم لا تفهمان ما يقال» .

[٢٩]

---

(١) التحرير والتنوير ١٧/٩٠

[سورة الشعراء (٢٦) : آية ٢٩]

قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين (٢٩)

لما لم يجد فرعون لحجاجه نجاحا ورأى شدة شكيمة موسى في الحق عدل عن الحجاج إلى التخويف ليقطع دعوة موسى من أصلها. وهذا شأن من قهرته الحجة، وفيه كبرياء أن ينصرف عن الجدل إلى التهديد.

واللام في قوله: لئن اتخذت إلها موطئة للقسم. والمعنى أن فرعون أكد وعيده بما يساوي اليمين المجملة التي تؤذن بها اللام الموطئة في اللغة العربية كأن". (١)

٢٢. ٧-"كان الشعر كذبا لا قرينة على مراد صاحبه فهو قبيح، وإن كان عليه قرينة كان كذبا معتذرا عنه فكان غير محمود.

وفي هذا إبداء للبون الشاسع بين حال الشعراء وحال النبيء صلى الله عليه وسلم الذي كان لا يقول إلا حقا ولا يصانع ولا يأتي بما يضلل الأفهام.

ومن **اللطائف** أن الفرزدق أنشد عند سليمان بن عبد الملك قوله:

فبتن بجانبي مصرعات ... وبت أفض أغلاق الختام

فقال سليمان: قد وجب عليك الحد. فقال: يا أمير المؤمنين قد درأ الله عني الحد بقوله: وأنهم يقولون ما لا يفعلون. وروي أن النعمان بن عدي بن نضلة كان عاملا لعمر بن الخطاب فقال شعرا:

من مبلغ الحسناء أن حليلها ... بميسان يسقى في زجاج وحنتم

إلى أن قال:

لعل أمير المؤمنين يسوءه ... تنادمنا بالجوسق المتهدم (١)

فبلغ ذلك عمر فأرسل إليه بالقدوم عليه وقال له: أي والله إني ليسوءني ذلك وقد وجب عليك الحد، فقال: يا أمير المؤمنين ما فعلت شيئا مما قلت وإنما كان فضلة من القول، وقد قال الله تعالى: وأنهم يقولون ما لا يفعلون فقال له عمر: أما عذرك فقد درأ عنك الحد ولكن لا تعمل لي عملا أبدا وقد قلت ما قلت.

---

(١) التحرير والتنوير ١٢١/١٩

وقد كني باتباع الغاوين إياهم عن كونهم غاوين، وأفيد بتفظيع تمثيلهم بالإبل الهائمة تشويه حالتهم، وأن ذلك من أجل الشعر كما يؤذن به إناطة الخبر بالمشتق، فاقتضى ذلك أن الشعر منظور إليه في الدين بعين الغض منه، واستثناء إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات إلخ ... من عموم الشعراء، أي من حكم ذمهم. وبهذا الاستثناء تعين أن المذمومين هم شعراء المشركين الذين شغلهم الشعر عن سماع القرآن والدخول في الإسلام.

---

(١) الجوسق: القصر، كان أهل البطالة والخلاعة يأوون إلى القصور المتروكة.". [(١)]

٢٣. ٨-"الذين صبروا. والمراد: صبرهم على إقامة الدين وتحمل أذى المشركين، وقد علموا أنهم لاقوه فتوكلوا على ربهم ولم يعبأوا بقطيعة قومهم ولا بحرمانهم من أموالهم ثم فارقوا أوطانهم فرارا بدينهم من الفتن.

ومن **اللطائف** مقابلة غشيان العذاب للكفار من فوقهم ومن تحت أرجلهم بغشيان النعيم للمؤمنين من فوقهم بالغرف ومن تحتهم بالأنهار.

وتقديم المجرور على متعلقه من قوله: وعلى ربهم يتوكلون للاهتمام. وتقدم معنى التوكل عند قوله تعالى: فإذا عزمت فتوكل على الله في سورة آل عمران [١٥٩] [٦٠]

[سورة العنكبوت (٢٩) : آية ٦٠]

وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم (٦٠)

عطف على جملة: كل نفس ذائقة الموت [العنكبوت: ٥٧] فإن الله لما هون بها أمر الموت في مرضاة الله وكانوا ممن لا يعبأ بالموت علم أنهم يقولون في أنفسهم: إنا لا نخاف الموت ولكنا نخاف الفقر والضيعة. واستخفاف العرب بالموت سجية فيهم كما أن خشية المعرة من سجاياهم كما بيناه عند قوله تعالى: ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق [الإسراء: ٣١] فأعقب ذلك بأن ذكرهم بأن رزقهم على الله وأنه لا يضيعهم. وضرب لهم

المثل برزق الدواب، وللمناسبة في قوله تعالى: إن أرضي واسعة

---

(١) التحرير والتنوير ١٩/٢١٠

[العنكبوت: ٥٦] من توقع الذين يهاجرون من مكة أن لا يجدوا رزقا في البلاد التي يهاجرون إليها، وهو أيضا مناسب لوقوعه عقب ذكر التوكل في قوله: وعلى ربهم يتوكلون [العنكبوت: ٥٩] ، وفي الحديث: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا» . ولعل ما في هذه الآية وما في الحديث مقصود به المؤمنون الأولون ضمن الله لهم رزقهم لتوكلهم عليه في تركهم أموالهم بمكة للهجرة إلى الله ورسوله. وتوكلهم هو حق التوكل، أي أكمله وأحزمه فلا يضع نفسه في هذه المرتبة من لم يعمل عملهم.". (١)

٢٤. ٩-"تموتن إلا وأنتم مسلمون [البقرة: ١٣٢] ، واحتراز ب الأولين عن آبائهم الذين كانوا في زمان ملوكهم بعد سليمان.

وجمع هذا الخبر تحريضا على إبطال عبادة «بعل» لأن في الطبع محبة الاقتداء بالسلف في الخير. وقد جمع إلياس من معه من أتباعه وجعل مكيدة لسدنة (بعل) فقتلهم عن آخرهم انتصارا للدين وانتقاما لمن قتلتهم (إيزابل) زوجة (آخاب) .

وفي «مفاتيح الغيب» : «كان الملقب بالرشيد الكاتب (١) يقول: لو قيل: أتدعون بعلا وتدعون أحسن الخالقين، أوهم أنه أحسن» ، أي أوهم كلام الرشيد أنه لو كانت كلمة (تدعون) عوضا عن تذرون. وأجاب الفخر بأن فصاحة القرآن ليست لأجل رعاية هذه التكاليف بل لأجل قوة المعاني وجزالة الألفاظ اهـ-. وهو جواب غير مقنع إذ لا سبيل إلى إنكار حسن موقع المحسنات البديعية بعد استكمال مقتضيات البلاغة. قال السكاكي:

«وأصل الحسن في جميع ذلك (أي ما ذكر من المحسنات البديعية) أن تكون الألفاظ توابع للمعاني لا أن تكون المعاني لها توابع، أعني أن لا تكون متكلفة» . فإذا سلمنا أن (تذرون) و (تدعون) مترادفان لم يكن سبيل إلى إبطال أن إيثار (تدعون) أنسب.

فالوجه إما أن يجاب بما قاله سعد الله محشي البيضاوي بأن الجناس من المحسنات فإنما يناسب كلاما صادرا في مقام الرضى لا في مقام الغضب والتهويل. يعني أن كلام إلياس المحكي هنا محكي عن مقام الغضب والتهويل فلا تناسبه **اللطائف** اللفظية (يعني بالنظر إلى حال المخاطبين به لأن كلامه محكي في العربية بما يناسب مصدره في لغة قائله وذلك من دقائق الترجمة) ، وهو جواب دقيق، وإن كابر فيه

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/٢١

الخفاجي بكلام لا يليق، وإن تأملته جزمت باختلاله. وقد أجيب بما يقتضي منع الترادف بين فعلي تذرون و «تدعون» بأن فعل

---

(١) لم أقف على ذكر كاتب يلقب بالرشيد وأحسب أنه راشد بن إسحاق بن راشد أبا حليمة الكاتب.

كان شاعرا ماجنا. ترجمه ياقوت وذكر أنه اتصل بالوزير عبد الملك بن الزيات وزير المعتصم (١٧٣/ ٢٣٣) .". [١]

٢٥. ١٠-"والتفريع هذا مزيد مناسبة لقوله آنفا ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم [محمد: ١١] الآية.

فالأمر في قوله: فاعلم كناية عن طلب العلم وهو العمل بالمعلوم، وذلك مستعمل في طلب الدوام عليه لأن النبيء صلى الله عليه وسلم قد علم ذلك وعلمه المؤمنون، وإذا حصل العلم بذلك مرة واحدة تقرر في النفس لأن العلم لا يحتمل النقيض فليس الأمر به بعد حصوله لطلب تحصيله بل لطلب الثبات فهو على نحو قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله

[النساء: ١٣٦] . وأما الأمر في قوله: واستغفر لذنبك فهو لطلب تجديد ذلك إن كان قد علمه النبيء صلى الله عليه وسلم من قبل وعمله أو هو لطلب تحصيله إن لم يكن فعله من قبل.

وذكر المؤمنات بعد للمؤمنين اهتمام بهن في هذا المقام وإلا فإن الغالب اكتفاء القرآن بذكر المؤمنين وشموله للمؤمنات على طريقة التغليب للعلم بعموم تكاليف الشريعة للرجال والنساء إلا ما استثني من التكاليف.

ومن اللطائف القرآنية أن أمر هنا بالعلم قبل الأمر بالعمل في قوله: واستغفر لذنبك. قال ابن عيينة لما سئل عن فضل العلم: ألم تسمع قوله حين بدأ به فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك. وترجم البخاري في كتاب العلم من «صحيحه» باب العلم

قبل القول والعمل لقول الله تعالى: فاعلم أنه لا إله إلا الله فبدأ بالعلم.

وما يستغفر منه النبيء صلى الله عليه وسلم ليس من السيئات لعصمته منها، وإنما هو استغفار من

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/١٦٨

الغفلات ونحوها، وتسميته بالذنب في الآية إما محاكاة لما كان يكثر
النبيء صلى الله عليه وسلم أن يقوله: (اللهم اغفر لي خطيئتي)
وإنما كان يقوله في مقام التواضع، وإما إطلاق لاسم الذنب على ما يفوت من الازدياد في العبادة مثل
أوقات النوم والأكل، وإطلاقه على ما عناه
النبيء صلى الله عليه وسلم في قوله: «إنه ليغان (١) على قلبي وإني أستغفر الله في اليوم مائة مرة

---

(١) يغان، أي يغام ويغشى. وفسروا ذلك بالغفلات عن الذكر.". (١)

٢٦. ١١-"والذين كفروا: هم الذين ظلموا، عدل عن ضميرهم إلى الاسم الظاهر لما فيه من تأكيد الاسم السابق تأكيدا بالمرادف، مع ما في صفة الكفر من الإيماء إلى أنهم لم يشكروا نعمة خالقهم.
واليوم الذي أوعدوه هو زمن حلول العذاب فيحتمل أن يراد يوم القيامة ويحتمل حلول العذاب في الدنيا، وأيا ما كان فمضمون هذه الجملة مغاير لمضمون التي قبلها.
وإضافة (يوم) إلى ضميرهم للدلالة على اختصاصه بهم، أي هو معين لجزائهم كما أضيف يوم إلى ضمير المؤمنين في قوله تعالى: وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون [الأنبياء: ١٠٣] .
واليوم: يصدق بيوم القيامة، ويصدق بيوم بدر الذي استأصل الله فيه شوكتهم.
ولما كان المضاف إليه ضمير الكفار المعينين وهم كفار مكة ترجح أن يكون المراد من هذا اليوم يوما خاصا بهم وإنما هو يوم بدر لأن يوم القيامة لا يختص بهم بل هو عام لكفار الأمم كلهم بخلاف اليوم الذي في قوله في سورة الأنبياء [١٠٣] : وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون لأن ضمير الخطاب فيها عائد إلى الذين سبقت لهم منا الحسنى [الأنبياء: ١٠١] كلهم.
وفي الآية من **اللطائف** تمثيل ما سيصيب الذين كفروا بالذنوب، والذنوب يناسب القليب وقد كان مثواهم يوم بدر قليب بدر الذي رميت فيه أشلاء سادتهم وهو اليوم القائل فيه شداد بن الأسود الليثي المكنى أبا بكر يرثي قتلاهم:
وماذا بالقليب قليب بدر ... من الشيزى تزين بالسنام

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/١٠٥

تحيي بالسلامة أم بكر ... وهل لي بعد قومي من سلام

ولعل هذا مما يشمل قول النبيء صلى الله عليه وسلم حين وقف على القليب يوم بدر قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا [الأعراف: ٤٤] .". (١)

٢٧. ١٢-"وإيثار المضارع في قوله: يعلم للدلالة على استمرار ذلك العلم وتجدده وذلك إيذان بأنه بمحل الرضى منه.

وفي ضده قوله: قد يعلم الله المعوقين منكم [الأحزاب: ١٨] لأنه في معرض التوبيخ، أي لم يزل عالما بذلك حينا فحينا لا يخفى عليه منه حصة.

وأدنى أصله أقرب، من الدنو، استعير للأقل لأن المسافة التي بين الشيء والأدنى منه قليلة، وكذلك يستعار الأبعد للأكثر.

وهو منصوب على الظرفية لفعل تقوم، أي تقوم في زمان يقدر أقل من ثلثي الليل وذلك ما يزيد على نصف الليل وهو ما اقتضاه قوله تعالى: أو زد عليه [المزمل: ٤] .

وقرأ الجمهور: ثلثي بضم اللام على الأصل. وقرأه هشام عن ابن عامر بسكون اللام على التخفيف لأنه عرض له بعض الثقل بسبب التثنية.

وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب ونصفه وثلثه بخفضهما عطفا على ثلثي الليل، أي أدنى من نصفه وأدنى من ثلثه.

وقرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بنصب ونصفه وثلثه على أنهما منصوبان على المفعول ل تقوم، أي تقوم ثلثي الليل، وتقوم نصف الليل، وتقوم ثلث الليل، بحيث لا ينقص عن النصف وعن الثلث. وهذه أحوال مختلفة في قيام النبيء صلى الله عليه وسلم بالليل تابعة لاختلاف أحوال الليالي والأيام في طول بعضها وقصر بعض وكلها داخلة تحت التخيير الذي خيره الله في قوله قم الليل إلا قليلا [المزمل: ٢] إلى قوله: أو زد عليه [المزمل: ٤] .

وبه تظهر مناسبة تعقيب هذه الجملة بالجملة المعترضة، وهي جملة والله يقدر الليل والنهار أي قد علمها الله كلها وأنبأه بها. فلا يختلف المقصود باختلاف القراءات. فمن العجاب قول الفراء أن النصب أشبه بالصواب.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٢/٢٧

وطائفة عطف على اسم إن بالرفع وهو وجه جائز إذا كان بعد ذكر خبر إن لأنه يقدر رفعه حينئذ على الاستئناف كما في قوله تعالى: أن الله بريء من المشركين ورسوله [التوبة: ٣] . وهو من **اللطائف** إذا كان اتصاف الاسم والمعطوف". (١)

٢٨. ١٣-"بسم الله الرحمن الرحيم

٨٣- سورة المطففين

سميت هذه السورة في كتب السنة وفي بعض التفاسير «سورة ويل للمطففين» ، وكذلك ترجمها البخاري في كتاب التفسير من «صحيحه» ، والترمذي في «جامعه» .

وسميت في كثير من كتب التفسير والمصاحف «سورة المطففين» اختصارا.

ولم يذكرها في «الإتقان» في عداد السور ذوات أكثر من اسم وسماها «سورة المطففين» وفيه نظر.

وقد اختلف في كونها مكية أو مدنية أو بعضها مكي وبعضها مدني. فعن ابن مسعود والضحاك ومقاتل في رواية عنه: أنها مكية، وعن ابن عباس في الأصح عنه وعكرمة والحسن والسدي ومقاتل في رواية أخرى عنه: أنها مدنية، قال: وهي أول سورة نزلت بالمدينة، وعن ابن عباس في رواية عنه وقتادة: هي مدنية إلا ثمان آيات من آخرها من قوله: إن الذين أجرموا [المطففين: ٢٩] إلى آخرها.

وقال الكلبي وجابر بن زيد: نزلت بين مكة والمدينة فهي لذلك مكية، لأن العبرة في المدني بما نزل بعد الهجرة على المختار من الأقوال لأهل علم القرآن.

قال ابن عطية: احتج جماعة من المفسرين على أنها مكية بذكر الأساطير فيها أي قوله: إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين [القلم: ١٥] . والذي نختاره: أنها نزلت قبل الهجرة لأن معظم ما اشتملت عليه التعريض بمنكري البعث.

ومن **اللطائف** أن تكون نزلت بين مكة والمدينة لأن التطفيف كان فاشيا في البلدين.

وقد حصل من اختلافهم أنها: إما آخر ما أنزل بمكة، وإما أول ما أنزل بالمدينة، والقول بأنها نزلت بين مكة والمدينة قول حسن.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨١/٢٩

(٢) التحرير والتنوير ١٨٧/٣٠

٢٩.   ١٤-"وكرم. والضعف- بضم الضاد وفتحها- ضد القوة في البدن، وهما هنا مجازان، فالأول أقرب إلى خور العزيمة، ودبيب اليأس في النفوس والفكر، والثاني أقرب إلى الاستسلام والفشل في المقاومة.

وأما الاستكانة فهي الخضوع والمذلة للعدو. ومن **اللطائف** ترتيبها في الذكر على حسب ترتيبها في الحصول: فإنه إذا خارت العزيمة فشلت الأعضاء، وجاء الاستسلام، فتبعته المذلة والخضوع للعدو.

واعلموا أنه إذا كان هذا شأن أتباع الأنبياء، وكانت النبوءة هديا وتعليما، فلا بدع أن يكون هذا شأن أهل العلم، وأتباع الحق، أن لا يوهنهم، ولا يضعفهم، ولا

يخضعهم، مقاومة مقاوم، ولا أذى حاسد، أو جاهل،

وفي الحديث الصحيح، في «البخاري» : أن خبابا قال للنبيء صلى الله عليه وسلم: «لقد لقينا من المشركين شدة ألا تدعو الله» فقعد وهو محمر وجهه فقال: «لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه»

الحديث.

وقوله تعالى: وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا الآية عطف على فما وهنوا لأنه لما وصفهم برباطة الجأش، وثبات القلب، وصفهم بعد ذلك بما يدل على الثبات من أقوال اللسان التي تجري عليه عند الاضطراب والجزع، أي أن ما أصابهم لم يخالجهم بسببه تردد في صدق وعد الله، ولا بدر منهم تذمر، بل علموا أن ذلك لحكمة يعلمها سبحانه، أو لعله كان جزاء على تقصير منهم في القيام بواجب نصر دينه، أو في الوفاء بأمانة التكليف، فلذلك ابتهلوا إليه عند نزول المصيبة بقولهم: ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا خشية أن يكون ما أصابهم جزاء على ما فرط منهم، ثم سألوه النصر وأسبابه ثانيا فقالوا: وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فلم يصدهم ما لحقهم من الهزيمة عن رجاء النصر،

وفي «الموطأ» ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول: دعوت فلم يستجب لي»

فقصر قولهم في تلك الحالة التي يندر". (١)

٣٠. ١٥-"في قطيفة حمراء أو في سيف لا يستقيم هنا لبعد ما بين غزوة بدر وغزوة أحد فضلا على ما ذكره بعضهم من نزول هذه الآية في حرص الأعراب على قسمة الغنائم يوم حنين الواقع بعد غزوة أحد بخمس سنين.

وقرأ جمهور العشرة: يغل- بضم التحتية وفتح الغين- وقرأه ابن كثير، وأبو عمرو وعاصم- بفتح التحتية وضم الغين-.

والفعل مشتق من الغلول وهو أخذ شيء من الغنيمة بدون إذن أمير الجيش، والغلول مصدر غير قياسي، ويطلق الغلول على الخيانة في المال مطلقا.

وصيغة وما كان لنبي أن يغل صيغة جحود تفيد مبالغة النفي. وقد تقدم القول فيها عند قوله تعالى: ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة [آل عمران: ٧٩] في هذه السورة فإذا استعملت في الإنشاء كما هنا أفادت المبالغة في النهي. والمعنى على قراءة الجمهور نهي جيش النبيء عن أن يغلو لأن الغلول في غنائم النبيء صلى الله عليه وسلم غلول للنبيء، إذ قسمة الغنائم إليه، وأما على قراءة ابن كثير وأبي عمرو وعاصم فمعنى أن النبيء لا يغل أنه لا يقع الغلول في جيشه فإسناد الغلول إلى النبيء مجاز عقلي لملابسة جيش النبيء نبيئهم ولك أن تجعله على تقدير مضاف. والتقدير: ما كان لجيش نبيء أن يغل.

ولبعض المفسرين من المتقدمين ومن بعدهم تأويلات للمعنى على هذه القراءة فيها سماجة.

ومعنى ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة أنه يأتي به مشهرا مفضوحا بالسرقة.

ومن **اللطائف** ما في البيان والتبيين للجاحظ: أن مزيدا- رجلا من الأعراب- سرق نافجة مسك فقيل له: كيف تسرقها وقد قال الله تعالى: ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة؟ فقال: إذن أحملها طيبة الريح خفيفة المحمل. وهذا تلميح وتلقي المخاطب بغير ما يترقب. وقريب منه ما حكي عن عبد الله بن مسعود والدرك على من حكاه قالوا:

---

(١) التحرير والتنوير ١١٩/٤

لما بعث إليه عثمان ليسلم". (١)

٣١. ١٦-"ومن **اللطائف** ما ذكره ابن هشام، في شرح قصيدة كعب بن زهير عند قول كعب:

لكنها خلة قد سيط من دمها ... فجع وولع وإخلاف وتبديل

أن الزمخشري قال: إنه رأى نفسه في النوم يقول: العداوة مشتقة من عدوة الوادي، أي جانبه، لأن المتعاديين يكون أحدهما مفارقا للآخر فكأن كل واحد منهما على عدوة اه. فيكون مشتقا من الاسم الجامد وهو بعيد.

وإلقاء العداوة والبغضاء بينهم كان عقابا في الدنيا لقوله: إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون جزاء على نكثهم العهد. وأسباب العداوة والبغضاء شدة الاختلاف: فتكون من اختلافهم في نحل الدين بين يعاقبة، وملكانية، ونسطورية، وهراتقة (بروتستانت) وتكون من التحاسد على السلطان ومتاع الدنيا، كما كان بين ملوك النصرانية، وبينهم وبين رؤساء ديانتهم.

فإن قيل: كيف أغريت بينهم العداوة وهم لم يزالوا إلبا على المسلمين؟ فجوابه: أن العداوة ثابتة بينهم في الدين بانقسامهم فرقا، كما قدمناه في سورة النساء [١٧١] عند قوله تعالى: وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وذلك الانقسام يجر إليهم العداوة وخذل بعضهم بعضا. ثم إن دولهم كانت منقسمة ومتحاربة، ولم تزل كذلك، وإنما تألبوا في

الحروب الصليبية على المسلمين ثم لم يلبثوا أن تخاذلوا وتحاربوا، ولا يزال الأمر بينهم كذلك إلى الآن. وكم ضاعت مساعي الساعين في جمعهم على كلمة واحدة وتأليف اتحاد بينهم، وكان اختلافهم لطفا بالمسلمين في مختلف عصور التاريخ الإسلامي، على أن اتفاقهم على أمة أخرى لا ينافي تمكن العداوة فيما بينهم، وكفى بذلك عقابا لهم على نسيانهم ما ذكروا به.". (٢)

٣٢. ١-"- ٧٥٦ -

شعر وآية الإعجاز وتعلقه بسورة أو آيات وقد أطال في الحديث عن الإعجاز تحت قوله ﴿ولن

---

(١) التحرير والتنوير ٤/١٥٥

(٢) التحرير والتنوير ٦/١٤٩

تفعلوا﴾ .

تاسعا: موقفه من القراءات:

وقد جعل المصنف المقدمة السادسة في القراءات وبين فيها سبب إعراضه عن ذكر كثير من القراءات في أثناء التفسير. وقال رحمه الله:

(تنبيه) أنا أقتصر في هذا التفسير على التعرض لاختلاف القراءات العشر المشهورة خاصة في أشهر روايات الراوين عن أصحابها لأنها متواترة، وإن كانت القراءات السبع قد امتازت على بقية القراءات بالشهرة بين المسلمين في أقطار الإسلام.

وأبني أول التفسير على قراءة نافع برواية عيسى بن مينا المدني الملقب بقالون لأنها القراءة المدنية إماما وراويا ولأنها التي يقرأ بها معظم أهل تونس، ثم أذكر خلاف بقية القراء العشرة خاصة. ولم يلتزم بما قال، بل أطنب إطنابا غريبا في بعض المواضع ومن ذلك قوله:

والصراط: الطريق وهو بالصاد والسين وقد قرئ بهما في المشهورة وكذلك نطقت به بالسين جمهور العرب إلا أهل الحجاز نطقوه بالصاد مبدلة عن السين لقصد التخفيف في الانتقال من السين إلى الراء ثم إلى الطاء قال في **لطائف** الإشارات عن الجعبرى: إنهم يفعلون ذلك في كل سين بعدها غين أو خاء أو قاف أو طاء وإنما قلبوها هنا صادا لتطابق الطاء في الإطباق والاستعلاء والتفخم مع الراء استثقالا للانتقال من سفل إلى علو اهـ. أى بخلاف العكس نحو طست لأن الأول عمل والثاني ترك. وقيس قلبوا السين بين الصاد والزاي وهو إشمام وقرأ به حمزة في رواية خلف عنه. ومن العرب من قلب السين زايا خالصة قال القرطبي: وهي لغة عذرة وكلب وبني القين وهي مرجوحة ولم يقرأ بها، وقد قرأ باللغة الفصحى (بالصاد) جمهور القراء وقرأ بالسين ابن كثير في رواية قنبل، والقراءة بالصاد هي الراجحة لموافقتها". (١)

٣٣. ٢-"وقوله فالويل كل الويل تنفير، لأن من لم يعرف هذين العلمين إذا شرع في تفسير القرآن واستخراج **لطائفه**

أخطأ غالبا، وإن أصاب نادرا كان مخطئا في إقدامه عليه اهـ» .

---

(١) التحرير والتنوير /

وقوله تمام مراد الحكيم، أي المقصود هو معرفة جميع مراد الله من قرآنه، وذلك إما ليكثر الطلب واستخراج النكت، فيدأب كل أحد للاطلاع على غاية مراد الله تعالى، وإما أن يكون المراد الذي نصب عليه علامات بلاغية وهو منحصر فيما يقتضيه المقام بحسب التتبع، والكل مظنة عدم التناهي وباعث للناظر على بذل غاية الجهد في معرفته، والناس متفاوتون في هذا الاطلاع على قدر صفاء القرائح ووفرة المعلومات.

وقال أبو الوليد ابن رشد في جواب له عمن قال إنه لا يحتاج إلى لسان العرب ما نصه: «هذا جاهل فلينصرف عن ذلك وليتب منه فإنه لا يصح شيء من أمور الديانة والإسلام إلا بلسان العرب يقول الله تعالى: بلسان عربي مبين [الشعراء: ١٩٥] إلا أن يرى أنه قال ذلك لخبث في دينه فيؤدبه الإمام على قوله ذلك بحسب ما يرى فقد قال عظيما اهـ» .

ومراد السكاكي من تمام مراد الله ما يتحمله الكلام من المعاني الخصوصية، فمن يفسر قوله تعالى: إياك نعبد [الفاتحة: ٥] بإنا نعبدك لم يطلع على تمام المراد لأنه أهمل ما يقتضيه تقديم المفعول من القصد.

وقال في آخر فن البيان من «المفتاح» : «لا أعلم في باب التفسير بعد علم الأصول أقرأ على المرء لمراد الله من كلامه من علمي المعاني والبيان، ولا أعون على تعاطي تأويل متشابهاته، ولا أنفع في درك لطائف نكته وأسراره، ولا أكشف للقناع عن وجه إعجازه، ولكم آية من آيات القرآن تراها قد ضيمت حقها واستلبت ماءها ورونقها أن وقعت إلى من ليسوا من أهل هذا العلم، فأخذوا بها في مآخذ مردودة، وحملوها على محامل غير مقصودة إلخ» .

وقال الشيخ عبد القاهر في «دلائل الإعجاز» . في آخر فصل المجاز الحكمي: «ومن عادة قوم ممن يتعاطى التفسير بغير علم، أن يتوهموا ألباب الألفاظ الموضوعة على المجاز والتمثيل أنها على ظواهرها (أي على الحقيقة) ، فيفسدوا المعنى بذلك ويبطلوا الغرض ويمنعوا أنفسهم والسامع منهم العلم بموضع البلاغة وبمكان الشرف، وناهيك بهم إذا أخذوا في ذكر الوجوه وجعلوا يكثرون في غير طائل، هنا لك ترى ما شئت من باب جهل قد فتحوه، وزند ضلالة قد قدحوا به» .". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/١

٣٤. ٣-"قلت: حد الإعجاز مطابقة الكلام لجميع مقتضى الحال، وهو لا يقبل التفاوت، ويجوز مع ذلك أن يكون بعض الكلام المعجز مشتملا على **لطائف** وخصوصيات تتعلق بوجوه الحسن كالجناس والمبالغة، أو تتعلق بزيادة الفصاحة، أو بالتفنن مثل: أم تسألهم

خرجا فخراج ربك خير

[المؤمنون: ٧٢] . على أنه يجوز أن تكون إحدى القراءات نشأت عن ترخيص النبيء صلى الله عليه وسلم للقارىء أن يقرأ بالمرادف تيسيرا على الناس كما يشعر به حديث تنازع عمر مع هشام بن حكيم، فتروى تلك القراءة للخلف فيكون تمييز غيرها بسبب أن المتميزة هي البالغة البلاغة وأن الأخرى توسعة ورخصة، ولا يعكر ذلك على كونها أيضا بالغة الطرف الأعلى من البلاغة وهو ما يقرب من حد الإعجاز. وأما الإعجاز فلا يلزم أن يتحقق في كل آية من آي القرآن لأن التحدي إنما وقع بسورة مثل سور القرآن، وأقصر سورة ثلاث آيات فكل مقدار ينتظم من ثلاث آيات من القرآن يجب أن يكون مجموعه معجزا. تنبيه: أنا أقتصر في هذا التفسير على التعرض لاختلاف القراءات العشر المشهورة خاصة في أشهر روايات الراوين عن أصحابها لأنها متواترة، وإن كانت القراءات السبع قد امتازت على بقية القراءات بالشهرة بين المسلمين في أقطار الإسلام. وأبني أول التفسير على قراءة نافع برواية عيسى ابن مينا المدني الملقب بقالون لأنها القراءة المدنية إماما وراويا ولأنها التي يقرأ بها معظم أهل تونس. ثم أذكر خلاف بقية القراء العشرة خاصة.

والقراءات التي يقرأ بها اليوم في بلاد الإسلام من هذه القراءات العشر، هي قراءة نافع برواية قالون في بعض القطر التونسي وبعض القطر المصري وفي ليبيا، وبرواية ورش في بعض القطر التونسي وبعض القطر المصري وفي جميع القطر الجزائري وجميع المغرب الأقصى، وما يتبعه من البلاد والسودان. وقراءة عاصم برواية حفص عنه في جميع الشرق من العراق والشام وغالب البلاد المصرية والهند وباكستان وتركيا والأفغان. وبلغني أن قراءة أبي عمرو البصري يقرأ بها في السودان المجاور مصر.". (١)

٣٥. ٤-"فعلوا ولا قدروا، ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كمسيلمة كشف عواره لجميعهم. ولما سمع الوليد بن المغيرة قوله تعالى: إن الله يأمر بالعدل والإحسان [النحل: ٩٠] الآية قال: والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر وما هو بكلام بشر. وذكر

---

(١) التحرير والتنوير ٦٣/١

أبو عبيدة أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ فاصدع بما تؤمر [الحجر: ٩٤] فسجد وقال: سجدت لفصاحته، (وكان موضع التأثير في هذه الجملة هو كلمة اصدع في إبانتها عن الدعوة والجهر بها والشجاعة فيها، وكلمة بما تؤمر في إيجازها وجمعها) (١) . وسمع آخر رجلا يقرأ: فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا [يوسف: ٨٠] فقال: أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام. وكون النبيء صلى الله عليه وسلم تحدى به وأن العرب عجزوا عن معارضته مما علم بالضرورة إجمالا وتصدى أهل علم البلاغة لتفصيله.

قال السكاكي في «المفتاح» : «واعلم أن شأن الإعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها، أو كالملاحة، ومدرك الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلا، وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين (المعاني والبيان) نعم للبلاغة وجوه متلثمة ربما تيسرت إماطة اللثام عنها لتجلى عليك، أما نفس وجه الإعجاز فلا» اه.

قال التفتازاني: «يعني أن كل ما ندركه بعقولنا ففي غالب الأمر نتمكن من التعبير عنه، والإعجاز ليس كذلك لأنا نعلم قطعا من كلام الله أنه بحيث لا تمكن للبشر معارضته والإتيان بمثله ولا يماثله شيء من كلام فصحاء العرب مع أن كلماته كلمات كلامهم، وكذا هيئات تراكيبه، كما أنا نجد كلاما نعلم قطعا أنه مستقيم الوزن دون آخر، وكما أنا ندرك من أحد كون كل عضو منه كما ينبغي وآخر كذلك أو دون ذلك، لكن فيه شيء نسميه الملاحة ولا نعرف أنه ما هو، وليس مدرك الإعجاز عند المصنف سوى الذوق وهو قوة إدراكية لها اختصاص بإدراك **لطائف** الكلام ووجوه محاسنه الخفية، فإن كان حاصلا بالفطرة فذاك وإن أريد اكتسابه فلا طريق إليه سوى الاعتناء بعلمي المعاني والبيان وطول ممارستهما والاشتغال بهما، وإن جمع بين الذوق الفطري وطول خدمة العلمين فلا غاية وراءه، فوجه الإعجاز أمر من جنس البلاغة والفصاحة لا كما ذهب إليه النظام وجمع من المعتزلة أن إعجازه بالصرفة بمعنى أن الله صرف العرب عن معارضته وسلب قدرتهم عليها، ولا كما ذهب إليه جماعة من أن إعجازه بمخالفة أسلوبه لأساليب كلامهم من الأشعار والخطب والرسائل لا سيما في المقاطع

---

(١) ما بين الهلالين كلام للمصنف. [.....]".(١)

---

(١) التحرير والتنوير ١/١٠٧

٣٦. ٥-"فيها، فذلك أمر يتبع رواية القراء وأخبار السنة الصحيحة فيعود إلى الأدلة السابقة.

وهذا كله بناء على تسليم أن الصحابة لم يكتبوا أسماء السور وكونها مكية أو مدنية في المصحف وأن ذلك من صنع المتأخرين وهو صريح كلام عبد الحكيم في «حاشية البيضاوي» ، وأما إذا ثبت أن بعض السلف كتبوا ذلك كما هو ظاهر كلام المفسرين والأصوليين والقراء كما في «**لطائف** الإشارات» للقسطلاني وهو مقتضى كتابة المتأخرين لذلك لأنهم ما كانوا يجرأون على الزيادة على ما فعله السلف فالاحتجاج حينئذ بالكتابة باطل من أصله ودعوى كون أسماء السور كتبت بلون مخالف لحبر القرآن، يرده أن المشاهد في مصاحف السلف أن حبرها بلون واحد ولم يكن التلوين فاشيا.

وقد احتج بعضهم بما

رواه البخاري عن أنس أنه سئل كيف كانت قراءة النبيء؟

فقال كانت مدا ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد بسم الله ويمد بالرحمن ويمد بالرحيم

، اهـ، ولا حجة في هذا لأن ضمير قرأ وضمير يمد عائدان إلى أنس، وإنما جاء بالبسملة على وجه التمثيل لكيفية القراءة لشهرة البسملة.

وحجة عبد الله بن المبارك وثاني قولي الشافعي ما

رواه مسلم عن أنس قال: «بينا رسول الله بين أظهرنا ذات يوم إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسما فقلنا ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: أنزلت علي سورة آنفا فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر

[الكوثر: ١] السورة، قالوا وللإجماع على أن ما بين الدفتين كلام الله ولإثبات الصحابة إياها في المصاحف مع حرصهم على أن لا يدخلوا في القرآن ما ليس منه ولذلك لم يكتبوا آمين في الفاتحة.

والجواب عن الحديث أنا نمنع أن يكون قرأ البسملة على أنها من السورة بل افتتح بها عند إرادة القراءة لأنها تغني عن الاستعاذة إذا نوى المبسمل تقدير أستعيذ باسم الله وحذف متعلق الفعل، ويتعين حمله على نحو هذا لأن راويه أنسا بن مالك جزم في حديثه الآخر أنه لم يسمع رسول الله بسمل في الصلاة.

فإن أبوا تأويله بما تأولناه لزم اضطراب أنس في روايته اضطرابا يوجب سقوطها.

والحق البين في أمر البسملة في أوائل السور، أنها كتبت للفصل بين السور ليكون

الفصل مناسبا لابتداء المصحف، ولئلا يكون بلفظ من غير القرآن، وقد روى أبو داود". [1]

٣٧. ٦-"التنبه له أن الاسم الظاهر معتبر من قبيل الغائب على كلا الرأيين، ولذلك كان قوله تعالى: إياك نعبد التفاتا على كلا الرأيين لأن ما سبق من أول السورة إلى قوله إياك نعبد تعبير بالاسم الظاهر وهو اسم الجلالة وصفاته.

ولأهل البلاغة عناية بالالتفات لأن فيه تجديد أسلوب التعبير عن المعنى بعينه تحاشيا من تكرر الأسلوب الواحد عدة مرار فيحصل بتجديد الأسلوب تجديد نشاط السامع كي لا يمل من إعادة أسلوب بعينه. قال السكاكي في «المفتاح» بعد أن ذكر أن العرب يستكثرون من الالتفات: «أفتراهم يحسنون قرى الأشباح فيخالفون بين لون ولون وطعم وطعم ولا يحسنون قرى الأرواح فيخالفون بين أسلوب وأسلوب» . فهذه فائدة مطردة في الالتفات. ثم إن البلغاء لا يقتصرون عليها غالبا بل يراعون للالتفات **لطائف** ومناسبات ولم يزل أهل النقد والأدب يستخرجون ذلك من مغاصه.

وما هنا التفات بديع فإن الحامد لما حمد الله تعالى ووصفه بعظيم الصفات بلغت به الفكرة منتهاها فتخيل نفسه في حضرة الربوبية فخاطب ربه بالإقبال، كعكس هذا الالتفات في قول محمد بن بشير الخارجي (نسبة إلى بني خارجة قبيلة) :

ذممت ولم تحمد وأدركت حاجة ... تولى سواكم أجرها واصطناعها

أبى لك كسب الحمد رأي مقصر ... ونفس أضاق الله بالخير باعها

إذا هي حثته على الخير مرة ... عصاها وإن همت بشر أطاعها

فخاطبه ابتداء ثم ذكر قصور رأيه وعدم انطباع نفسه على الخير فالتفت من خطابه إلى التعبير عنه بضمير الغيبة فقال: إذا هي حثته فكأنه تخيله قد تضاءل حتى غاب عنه، وبعكس ذلك قوله تعالى: والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي [العنكبوت: ٢٣] لاعتبار تشنيع كفر المتحدث عنهم بأنهم كفروا بآيات صاحب ذلك الاسم الجليل، وبعد تقرر ذلك انتقل إلى أسلوب ضمير المتكلم إذ هو الأصل في التعبير عن الأشياء المضافة إلى ذات المتكلم. ومما يزيد الالتفات وقعا في الآية أنه

---

(١) التحرير والتنوير ١/١٤٣

تخلص من الثناء إلى الدعاء ولا شك أن الدعاء يقتضي الخطاب فكان قوله: إياك نعبد تخلصا يجيء بعده: اهدنا الصراط ونظيره في ذلك قول النابغة في رثاء النعمان الغساني:

أبى غفلتي أني إذا ما ذكرته ... تحرك داء في فؤادي داخل". (١)

٣٨. ٧-"عليه وسلم فإن دعاءه حينئذ يكون من استعمال اللفظ في مجاز معناه ويكون دعاؤه ذلك اقتباسا من الآية وليس عين المراد من الآية لأن المراد منها طلب الحصول بالمزيد مع طلب الدوام بطريقة الالتزام ولا محالة أن المقصود في الآية هو طلب الهداية الكاملة.

والصراط الطريق وهو بالصاد وبالسين وقد قرىء بهما في المشهورة وكذلك نطقت به بالسين جمهور العرب إلا أهل الحجاز نطقوه بالصاد مبدلة عن السين لقصد التخفيف في الانتقال من السين إلى الراء ثم إلى الطاء قال في «**لطائف** الإشارات» عن الجعبري إنهم يفعلون ذلك في كل سين بعدها غين أو خاء أو قاف أو طاء وإنما قلبوها هنا صادا لتطابق الطاء في الإطباق والاستعلاء والتفخم مع الراء استثقالا للانتقال من سفل إلى علو اهـ.

أي بخلاف العكس نحو طست لأن الأول عمل والثاني ترك. وقيس قلبوا السين بين الصاد والزاي وهو إشمام وقرأ به حمزة في رواية خلف عنه. ومن العرب من قلب السين زايا خالصة قال القرطبي: وهي لغة عذرة وكلب وبني القين وهي مرجوحة ولم يقرأ بها، وقد قرأ باللغة الفصحى (بالصاد) جمهور القراء وقرأ بالسين ابن كثير في رواية قنبل، والقراءة بالصاد هي الراجحة لموافقتها رسم المصحف وكونها اللغة الفصحى.

فإن قيل كيف كتبت في المصحف بالصاد وقرأها بعض القراء بالسين؟ قلت إن الصحابة كتبوها بالصاد تنبيها على الأفصح فيها، لأنهم يكتبون بلغة قريش واعتمدوا على علم العرب فالذين قرأوا بالسين تأولوا أن الصحابة لم يتركوا لغة السين للعلم بها فعادلوا الأفصح بالأصل ولو كتبوها بالسين مع أنها الأصل لتوهم الناس عدم جواز العدول عنه

لأنه الأصل والمرسوم كما كتبوا المصيطر بالصاد مع العلم بأن أصله السين فهذا مما يرجع الخلاف فيه إلى الاختلاف في أداء اللفظ لا في مادة اللفظ لشهرة اختلاف لهجات القبائل في لفظ مع اتحاده عندهم.

---

(١) التحرير والتنوير ١/١٧٩

والصراط اسم عربي ولم يقل أحد من أهل اللغة أنه معرب ولكن ذكر في «الإتقان» عن النقاش وابن الجوزي أنه الطريق بلغة الروم وذكر أن أبا حاتم ذكر ذلك في كتاب «الزينة» له وبنى على ذلك السيوطي فزاده في «منظومته في المعرب» .
والصراط في هذه الآية مستعار لمعنى الحق الذي يبلغ به مدركه إلى الفوز برضاء الله لأن ذلك الفوز هو الذي جاء الإسلام بطلبه.". (١)

٣٩. ٨-"فكنت كذي رجلين رجل صحيحة ... ورجل رمى فيها الزمان فشلت
والاستكبار التزايد في الكبر لأن السين والتاء فيه للمبالغة لا للطلب كما علمت، ومن **لطائف** اللغة العربية أن مادة الاتصاف بالكبر لم تجيء منها إلا بصيغة الاستفعال أو التفعل إشارة إلى أن صاحب صفة الكبر لا يكون إلا متطلبا الكبر أو متكلفا له وما هو بكبير حقا ويحسن هنا أن نذكر قول أبي العلاء:
علوتم فتواضعتم على ثقة ... لما تواضع أقوام على غرر
وحقيقة الكبر قال فيها حجة الإسلام في كتاب «الإحياء» : الكبر خلق في النفس وهو الاسترواح والركون إلى اعتقاد المرء نفسه فوق التكبر عليه، فإن الكبر يستدعي متكبرا عليه ومتكبرا به وبذلك ينفصل الكبر عن العجب فإن العجب لا يستدعي غير المعجب ولا يكفي أن يستعظم المرء نفسه ليكون متكبرا فإنه قد يستعظم نفسه ولكنه يرى غيره أعظم من نفسه أو مماثلا لها فلا يتكبر عليه، ولا يكفي أن يستحقر غيره فإنه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر لم يتكبر ولو رأى غيره مثل نفسه لم يتكبر بل أن يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره، فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل خلق الكبر وهذه العقيدة تنفخ فيه فيحصل في نفسه اعتداد وعزة وفرح وركون إلى ما اعتقد، وعز في نفسه بسبب ذلك فتلك العزة والهزة والركون إلى تلك العقيدة هو خلق الكبر.
وقد كانت هذه الآية ونظائرها مثار اختلاف بين علماء أصول الفقه فيما تقتضيه دلالة الاستثناء من حكم يثبت للمستثنى فقال الجمهور: الاستثناء يقتضي اتصاف المستثنى بنقيض ما حكم به للمستثنى منه فلذلك كثر الاكتفاء بالاستثناء دون أن يتبع بذكر حكم معين للمستثنى سواء كان الكلام مثبتا أو منفيا. ويظهر ذلك جليا في كلمة الشهادة لا إله إلا الله فإنه لولا إفادة الاستثناء أن المستثنى يثبت

(١) التحرير والتنوير ١/ ١٩٠

له نقيض ما حكم به للمستثنى منه لكانت كلمة الشهادة غير مفيدة سوى نفي الإلهية عما عدا الله فتكون إفادتها الوحدانية لله بالالتزام.

وقال أبو حنيفة الاستثناء من كلام منفي يثبت للمستثنى نقيض ما حكم به للمستثنى منه، والاستثناء من كلام مثبت لا يفيد إلا أن المستثنى يثبت له نقيض الحكم لا نقيض المحكوم به، فالمستثنى بمنزلة المسكوت عن وصفه،". (١)

٤٠. ٩-"دالا على التقضي شيئا بعد شيء كان أدل على المبالغة لأن شأن الأمر الذي يفعل مدرجا أن يكون أتقن. وقد أطلق الوفاء على تحقيق الوعد والعهد إطلاقا شائعا صيره حقيقة.

والعهد تقدم معناه عند قوله تعالى: الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه [البقرة: ٢٧] في هذه السورة.

والعهد هنا هو الالتزام للغير بمعاملة التزاما لا يفرط فيه المعاهد حتى يفسخاه بينهما واستعير العهد المضاف إلى ضمير الجلالة لقبول ما يكلفهم به من الدين واستعمل مجازا لقبول التكاليف والدخول في الدين واستعير المضاف إلى ضمير المخاطبين للوعد على ذلك بالثواب في الآخرة والنصر في الدنيا فلك أن تجعل كل عهد مجازا مفردا استعمل العهد الأول في التكاليف واستعمل العهد الثاني في الوعد بالثواب والنصر واستعمل الإيفاء مع كليهما في تحقيق ما التزم به كلا الجانبين مستعارا من ملائم المشبه به إلى ملائم المشبه ليفيد ترشيحا لاستعارته ولك أن تجعل المجموع استعارة تمثيلية بأن شبه الهيئة الحاصلة من قولهم لما أمرهم الله به وأن لا يقصروا في العمل ومن وعد الله إياهم على ذلك بالثواب بهيئة المتعاهدين على التزام كل منهما بعمل للآخر ووفائه بعهده في عدم الإخلال به فاستعير لهذه الهيئة الكلام المشتمل على قوله: وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وهذا أحسن وبه يتبين وجه استعمال لفظ العهد الثاني في قوله تعالى: أوف بعهدكم وتقربه المشاكلة.

وعلى الوجهين فالعهد في الموضعين مضاف للمفعول وهو ما ذهب إليه صاحب «الكشاف» لأن إضافته إلى المفعول متعينة إذا تعلق به الإيفاء إذ لا يوفي أحد إلا بعهد نفسه فإذا أضيف العهد الذي هو مفعول أوفوا إلى غير فاعل الإيفاء تعين أن تكون إضافته للمفعول وبذلك يتم ترشيح المجاز إن كان مفردا كما أشار له المحقق التفتازاني فإن كان مركبا فأخلق به لأن اللفظ الموضوع للهيئة المشبه بها

---

(١) التحرير والتنوير ٤٢٥/١

يضاف بقيد الإيفاء إلى مفعوله لا محالة.

ومن **لطائف** القرآن في اختيار لفظ العهد للاستعارة هنا لتكليف الله تعالى إياهم أن ذلك خطاب لهم باللفظ المعروف عندهم في كتبهم فإن التوراة المنزلة على موسى عليه السلام تلقب عندهم بالعهد لأنها وصايات الله تعالى لهم ولذا عبر عنه في مواضع من القرآن بالميثاق وهذا من طرق الإعجاز العلمي الذي لا يعرفه إلا علماؤهم وهم أشح به منهم في كل شيء بحيث لا يعرف ذلك إلا خاصة أهل الدين فمجيئه على لسان النبيء العربي الأمي دليل على أنه وحي من العلام بالغيوب.

والعهد قد أخذ على أسلافهم بواسطة رسلهم وأنبيائهم قال تعالى:". [1]

٤١. ١٠-"وأولئك هم المعتدون.

عطف على جملة: لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة لمناسبة أن إثبات الاعتداء العظيم لهم، نشأ عن الحقد، الشيء الذي أضمروه للمؤمنين، لا لشيء إلا لأنهم مؤمنون كقوله تعالى: وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد [البروج: ٨] .

والقصر إما أن يكون للمبالغة في اعتدائهم، لأنه اعتداء عظيم باطني على قوم حالفوهم وعاهدوهم، ولم يلحقوا بهم ضر مع تمكنهم منه، وإما أن يكون قصر قلب، أي: هم المعتدون لا أنتم لأنهم بدأوكم بنقض العهد في قضية خزاعة وبني الديل من بكر بن وائل مما كان سببا في غزوة الفتح.

[١١]

[سورة التوبة (٩) : آية ١١]

فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون (١١)

فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين.

تفريع حكم على حكم لتعقيب الشدة باللين إن هم أقلعوا عن عداوة المسلمين بأن دخلوا في الإسلام لقصد محو أثر الحنق عليهم إذا هم أسلموا أعقب به جملة: إنهم ساء ما كانوا يعملون- إلى قوله- المعتدون [التوبة: ٩، ١٠] تنبيها لهم على أن تداركهم أمرهم هين عليهم، وفرع على التوبة أنهم يصيرون إخوانا للمؤمنين. ولما كان المقام هنا لذكر عداوتهم مع المؤمنين جعلت توبتهم سببا للأخوة مع المؤمنين،

---

(١) التحرير والتنوير ٤٥٣/١

بخلاف مقام قوله قبله فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم [التوبة: ٥] حيث إن المعقب بالتوبة هنالك هو الأمر بقتالهم والترصد لهم، فناسب أن يفرع على توبتهم عدم التعرض لهم بسوء.

وقد حصل من مجموع الآيتين أن توبتهم توجب أمنهم وأخوتهم.

ومن **لطائف** الآيتين أن جعلت الأخوة مذكورة ثانيا لأنها أخص الفائدتين من توبتهم، فكانت هذه الآية مؤكدة لأختها في أصل الحكم.

وقوله: فإخوانكم خبر لمحذوف أي: فهم إخوانكم. وصيغ هذا الخبر بالجملة الاسمية: للدلالة على أن إيمانهم يقتضي ثبات الأخوة ودوامها، تنبيها على أنهم يعودون كالمؤمنين السابقين من قبل في أصل الأخوة الدينية.". (١)

٤٢. ١١-"ولما كان شأن المؤمنين الرغبة في الجهاد كان المذكور مع استئذان المؤمنين، في الآية أن يجاهدوا دون أن لا يجاهدوا، إذ لا يليق بالمؤمنين الاستئذان في ترك الجهاد، فإذا انتفى أن يستأذنوا في أن يجاهدوا ثبت أنهم يجاهدون دون استئذان، وهذا من **لطائف** بلاغة هذه الآية التي لم يعرج عليها المفسرون وتكلفوا في إقامة نظم الآية.

وجملة والله عليم بالمتقين معترضة لفائدة التنبيه على أن الله مطلع على أسرار المؤمنين إذ هم المراد بالمتقين كما تقدم في قوله في سورة البقرة [٢، ٣] هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب.

[٤٥]

[سورة التوبة (٩) : آية ٤٥]

إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون (٤٥)

الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا نشأ عن تبرئة المؤمنين من أن يستأذنوا في الجهاد:

ببيان الذين شأنهم الاستئذان في هذا الشأن، وأنهم الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر في باطن أمرهم لأن انتفاء إيمانهم ينفي رجاءهم في ثواب الجهاد، فلذلك لا يعرضون أنفسهم له.

وأفادت إنما القصر. ولما كان القصر يفيد مفاد خبرين بإثبات شيء ونفي ضده كانت صيغة القصر هنا دالة باعتبار أحد مفاديها على تأكيد جملة لا يستأذنك الذين

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٧/١٠

يؤمنون بالله واليوم الآخر

[التوبة: ٤٤] وقد كانت مغنية عن الجملة المؤكدة لولا أن المراد من تقديم تلك الجملة التنويه بفضيلة المؤمنين، فالكلام إطناب لقصد التنويه، والتنويه من مقامات الإطناب.

وحذف متعلق يستأذنك هنا لظهوره مما قبله مما يؤذن به فعل الاستئذان في قوله: لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا [التوبة: ٤٤] والتقدير:

إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون في أن لا يجاهدوا، ولذلك حذف متعلق يستأذنك هنا.". (١)

٤٣. ١٢-"والأذن الجارحة التي بها حاسة السمع. ومعنى هو أذن الإخبار عنه بأنه آلة سمع.

والإخبار ب هو أذن من صيغ التشبيه البليغ، أي كالأذن في تلقي المسموعات لا يرد منها شيئا، وهو كناية عن تصديقه بكل ما يسمع من دون تمييز بين المقبول والمردود.

روي أن قائل هذا هو نبتل بن الحارث أحد المنافقين.

وجملة: قل أذن خير لكم جملة قل مستأنفة استينافا ابتدائيا، على طريقة المقاولة والمحاورة، لإبطال قولهم بقلب مقصدهم إغاظة لهم، وكمدا لمقاصدهم، وهو من الأسلوب الحكيم الذي يحمل فيه المخاطب كلام المتكلم على غير ما يريده، تنبيها له على أنه الأولى بأن يراد، وقد مضى عند قوله تعالى: يسئلونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج [البقرة: ١٨٩] ومنه ما جرى بين الحجاج والقبعثري إذ قال له الحجاج متوعدا إياه «لأحملنك على الأدهم (أراد لألزمنك القيد لا تفارقه) فقال القبعثرى: «مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب» فصرف مراده إلى أنه أراد بالحمل معنى الركوب وإلى إرادة الفرس الذي هو أدهم اللون من كلمة الأدهم. وهذا من غيرة الله على رسوله عليه الصلاة والسلام، ولذلك لم يعقبه بالرد والزجر، كما أعقب ما قبله من قوله:

ومنهم من يقول ائذن لي [التوبة: ٤٩] . إلى هنا بل أعقبه ببيان بطلانه فأمر النبيء صلى الله عليه وسلم بأن يبلغهم ما هو إبطال لزعمهم من أصله بصرف مقالتهم إلى معنى لائق بالرسول، حتى لا يبقى للمحكي أثر، وهذا من لطائف القرآن.

ومعنى أذن خير أنه يسمع ما يبلغه عنكم ولا يؤاخذكم ويسمع معاذيركم ويقبلها منكم، فقبوله ما يسمعه ينفعكم ولا يضركم فهذا أذن في الخبر، أي في سماعه والمعاملة به وليس أذنا في الشر.

---

(١) التحرير والتنوير ٢١٢/١٠

وهذا الكلام إبطال لأن يكون أذن بالمعنى الذي أرادوه من الذم فإن الوصف بالأذن لا يختص بمن يقبل الكلام المفضي إلى شر بل هو أعم، فلذلك صح تخصيصه هنا بما فيه خير. وهذا إعمال في غير المراد منه. وهو ضرب من المجاز المرسل بعلاقة الإطلاق والتقييد في أحد الجانبين، فلا يشكل عليك بأن وصف أذن إذا كان مقصودا به الذم كيف يضاف إلى الخير، لأن محل الذم في هذا الوصف هو قبول كل ما يسمع". (١)

٤٤. ١٣-"تقطع ولا تعطف لأن التوبيخ يقتضي التعداد، فتقع الجمل الموبخ بها موقع الأعداد المحسوبة نحو واحد، اثنان، فالمعنى لا حاجة بكم للاعتذار عن التناجي فإنكم قد عرفتم بما هو أعظم وأشنع.

والنهي مستعمل في التسوية وعدم الجدوى.

وجملة: قد كفرتم بعد إيمانكم في موضع العلة من جملة: لا تعتذروا تعليلا للنهي المستعمل في التسوية وعدم الجدوى.

وقوله: قد كفرتم يدل على وقوع الكفر في الماضي، أي قبل الاستهزاء، وذلك أنه قد عرف كفرهم من قبل. والمراد بإسناد الإيمان إليهم: إظهار الإيمان، وإلا فهم لم يؤمنوا إيمانا صادقا. والمراد بإيمانهم: إظهارهم الإيمان، لا وقوع حقيقته. وقد أنبأ عن ذلك إضافة الإيمان إلى ضميرهم دون تعريف الإيمان باللام المفيدة للحقيقة، أي بعد إيمان هو من شأنكم، وهذا تعريض بأنه الإيمان الصوري غير الحق ونظيره قوله تعالى

الآتي وكفروا بعد إسلامهم [التوبة: ٧٤] وهذا من لطائف القرآن.

إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين.

جاءت هذه الجملة على عادة القرآن في تعقيب النذارة بالتبشير للراغب في التوبة تذكيرا له بإمكان تدارك حاله.

ولما كان حال المنافقين عجيبا كانت البشارة لهم مخلوطة ببقية النذارة، فأنبأهم أن طائفة منهم قد يعفى عنها إذا طلبت سبب العفو: بإخلاص الإيمان، وأن طائفة تبقى في حالة العذاب، والمقام دال على أن ذلك لا يكون عبثا ولا ترجيحا بدون مرجح، فما هو إلا أن طائفة مرجوة الإيمان، فيغفر عما

---

(١) التحرير والتنوير ١٠/٢٤٢

قدمته من النفاق، وأخرى تصر على النفاق حتى الموت، فتصير إلى العذاب. والآيات الواردة بعد هذه تزيد ما دل عليه المقام وضوحا من قوله: نسوا الله فنسيهم- إلى قوله- عذاب مقيم [التوبة: ٦٧، ٦٨] . وقوله". (١)

٤٥. ١٤-"[سورة التوبة (٩) : آية ٩٠]

وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم (٩٠)

عطفت جملة: وجاء المعذرون على جملة استأذنك أولوا الطول منهم [التوبة: ٨٦] ، وما بينهما اعتراض، فالمراد بالمعذرين فريق من المؤمنين الصادقين من الأعراب، كما تدل عليه المقابلة بقوله: وقعد الذين كذبوا الله ورسوله. وعلى هذا المعنى فسر ابن عباس، ومجاهد، وكثير. وجعلوا من هؤلاء غفارا، وخالفهم قتادة فجعلهم المعتذرين كذبا، وهم بنو عامر رهط عامر بن الطفيل، قالوا للنبيء صلى الله عليه وسلم إن خرجنا معك أغارت أعراب طيء على بيوتنا. ومن المعذرين الكاذبين أسد، وغطفان.

وعلى الوجهين في التفسير يختلف التقدير في قوله: المعذرون فإن كانوا المحقين في العذر فتقدير المعذرون أن أصله المعتذرون، من اعتذر أدغمت التاء في الذال لتقارب المخرجين لقصد التخفيف، كما أدغمت التاء في الصاد في قوله: وهم يخصمون [يس: ٤٩] ، أي يختصمون.

وإن كانوا الكاذبين في عذرهم فتقدير المعذرون: أنه اسم فاعل من عذر بمعنى تكلف العذر فعن ابن عباس: لعن الله المعذرين. قال الأزهري: ذهب إلى أنهم الذين يعتذرون بلا عذر فكأن الأمر عنده أن المعذر بالتشديد هو المظهر للعذر اعتلالا وهو لا عذر له اه. وقال شارح «ديوان النابغة» عند قول النابغة:

ودع أمامة والتوديع تعذير أي لا يجد عذرا غير التوديع.

ويجوز أن يكون اختيار صيغة المعذرين من لطائف القرآن لتشمل الذين صدقوا في العذر والذين كذبوا فيه.

والاعتذار افتعال من باب ما استعمل فيه مادة الافتعال للتكلف في الفعل والتصرف

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥٢/١٠

مثل الاكتساب والاختلاق. وليس لهذا المزيد فعل مجرد بمعناه وإنما المجرد هو عذر". [١]

٤٦. ١٥-"ولما قابل السكون في جانب الليل بالإبصار في جانب النهار، والليل والنهار ضدان دل ذلك على أن علة السكون عدم الإبصار، وأن الإبصار يقتضي الحركة فكان في الكلام احتباك. ووصف النهار بمبصر مجاز عقلي للمبالغة في حصول الإبصار فيه حتى جعل النهار هو المبصر. والمراد: مبصرا فيه الناس.

ومن لطائف المناسبة أن النور الذي هو كيفية زمن النهار، شيء وجودي، فكان زمانه حقيقا بأن يوصف بأوصاف العقلاء، بخلاف الليل فإن ظلمته عدمية فاقتصر في العبرة به على ذكر الفائدة الحاصلة فيه وهي أن يسكنوا فيه.

وفي قوله: هو الذي جعل لكم الليل طريق من طرق القصر وهو تعريف المسند والمسند إليه. وهو هنا قصر حقيقي وليس إضافيا كما توهمه بعض الكاتبين إذ جعله قصر تعيين، وهم معترفون به لا يستطيعون دفع هذا الاستدلال، فالمقصود الاستدلال على انفراده تعالى بخصائص الإلهية التي منها الخلق والتقدير، وأن آلهتهم انتفت عنها خصائص الإلهية، وقد حصل مع الاستدلال امتنان على الناس بجعل الليل والنهار على هذا النظام.

وهذا الامتنان مستفاد من قوله: جعل لكم ومن تعليل خلق الليل بعلة سكون الناس فيه، وخلق النهار بعلة إبصار الناس، وكل الناس يعلمون ما في سكون الليل من نعمة وما في إبصارهم بالنهار من نعمة كذلك، فإن في العمل بالنهار نعما جمة من تحصيل رغبات، ومشاهدة محبوبات، وتحصيل أموال وأقوات، وأن في السكون بالليل نعما جمة من

استجمام القوى المنهوكة والإخلاد إلى محادثة الأهل والأولاد، على أن في اختلاف الأحوال، ما يدفع عن المرء الملال.

وفي إدماج الاستدلال بالامتنان تعريض بأن الذين جعلوا لله شركاء جمعوا وصمتين هما: وصمة مخالفة الحق، ووصمة كفران النعمة.

وجملة: إن في ذلك لآيات مستأنفة. والآيات: الدلائل الدالة على وحدانية الله تعالى بالإلهية، فإن النظام الذي نشأ عنه الليل والنهار مشتمل على دقائق كثيرة من العلم والحكمة والقدرة وإتقان

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩٢/١٠

الصنع.". (١)

٤٧. ١٦-"ووصف اليوم بالعاصف مجاز عقلي، أي عاصف ريحه، كما يقال: يوم ماطر، أي سحابه.

والرماد: ما يبقى من احتراق الحطب والفحم. والعاصف تقدم في قوله: جاءتها ريح عاصف في سورة يونس [٢٢] .

ومن لطائف هذا التمثيل أن اختير له التشبيه بهيئة الرماد المتجمع، لأن الرماد أثر لأفضل أعمال الذين كفروا وأشيعها بينهم وهو قرى الضيف حتى صارت كثرة الرماد كناية في لسانهم عن الكرم.

وقرأ نافع وأبو جعفر اشتدت به الرياح. وقرأه البقية اشتدت به الريح بالإفراد، وهما سواء لأن التعريف تعريف الجنس.

وجملة لا يقدرون مما كسبوا على شيء بيان لجملة التشبيه، أي ذهبت أعمالهم سدى فلا يقدرون أن ينتفعوا بشيء منها.

وجملة ذلك هو الضلال البعيد تذييل جامع لخلاصة حالهم، وهي أنها ضلال بعيد.

والمراد بالبعيد البالغ نهاية ما تنتهي إليه ماهيته، أي بعيد في مسافات الضلال، فهو كقولك: أقصى الضلال أو جد ضلال، وقد تقدم في قوله تعالى: ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا في سورة النساء [١١٦] .

[١٩، ٢٠]

[سورة إبراهيم (١٤) : الآيات ١٩ إلى ٢٠]

ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد (١٩) وما ذلك على الله بعزيز (٢٠)

استئناف بياني ناشىء عن جملة فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين فإن هلاك فئة كاملة شديدة القوة والمرة أمر عجيب يثير في النفوس السؤال:". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٧/١١

(٢) التحرير والتنوير ٢١٣/١٣

٤٨. ١٧-"وتعريف المسند إليه الذي هو اسم إن بطريق الإضافة دون العلمية لما يومىء إليه إضافة لفظ (رب) إلى ضمير النبيء من كون المغفرة والرحمة لأصحابه كانت لأنهم أوذوا لأجل الله ولأجل النبيء صلى الله عليه وسلم فكان إسناد المغفرة إلى الله بعنوان كونه رب محمد صلى الله عليه وسلم حاصلا بأسلوب يدل على الذات العلية وعلى الذات المحمدية.

وهذا من أدق **لطائف** القرآن في قرن اسم النبيء باسم الله بمناسبة هذا الإسناد بخصوصه.

وضمير من بعدها عائد إلى الهجرة المستفادة من هاجروا، أو إلى المذكورات: من هجرة وفتنة وجهاد وصبر، أو إلى الفتنة المأخوذة من فتنوا. وكل تلك الاحتمالات تشير إلى أن المغفرة والرحمة لهم جزاء على بعض تلك الأفعال أو كلها.

وقرأ ابن عامر فتنوا- بفتح الفاء والتاء- على البناء للفاعل، وهي لغة في افتتن،

بمعنى وقع في الفتنة.

[١١١]

[سورة النحل (١٦) : آية ١١١]

يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون (١١١)

يجوز أن يكون هذا استئنافا وتذييلا بتقدير: اذكر يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها، وقع عقب التحذير والوعيد وعيدا للذين أنذروا ووعدا للذين بشروا.

ويجوز أن يكون متصلا بقوله: إن ربك من بعدها لغفور رحيم [سورة النحل: ١١٠] ، فيكون انتصاب يوم تأتي كل نفس على الظرفية لغفور رحيم، أي يغفر لهم ويرحمهم يوم القيامة بحيث لا يجدون أثرا لذنوبهم التي لا يخلو". (١)

٤٩. ١٨-"ومن قبيلها استعارة (البلى) لزوال صفة الشخص تشبيها للزوال بعد التمكن ببلى الثوب بعد جدته في قول أبي الغول الطهوي:

ولا تبلى بسالتهم وإن هم ... صلوا بالحرب حينا بعد حين

واستعارة سل الثياب إلى زوال المعاشرة في قول امرئ القيس:

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠١/١٤

فسلي ثيابي عن ثيابك تنسل ومن لطائف البلاغة جعل اللباس لباس شيئين، لأن تمام اللبسة أن يلبس المرء إزارا ودرعا.

ولما كان اللباس مستعارا لإحاطة ما غشيهم من الجوع والخوف وملازمته أريد إفادة أن ذلك متمكن منهم ومستقر في إدراكهم استقرار الطعام في البطن إذ يذاق في اللسان والحلق ويحس في الجوف والأمعاء.

فاستعير له فعل الإذاقة تمليحا وجمعا بين الطعام واللباس، لأن غاية القرى والإكرام أن يؤدب للضيف ويخلع عليه خلعة من إزار وبرد، فكانت استعارتان تهكميتان.

فحصل في الآية استعارتان: الأولى: استعارة الإذاقة وهي تبعية مصرحة، والثانية:

اللباس وهي أصلية مصرحة.

ومن بديع النظم أن جعلت الثانية متفرعة على الأولى ومركبة عليها بجعل لفظها مفعولا للفظ الأولى.

وحصل بذلك أن الجوع والخوف محيطان بأهل القرية في سائر

أحوالهم وملازمان لهم وأنهم بالغان منهم مبلغا أليما.

وأجمل بما كانوا يصنعون اعتمادا على سبق ما يبينه من قوله: فكفرت بأنعام الله.". (١)

٥٠. ١٩-"وذكر المفعول المطلق بقوله: تفجيرا للدلالة على التكثير لأن تفجر قد كفى في الدلالة على المبالغة في الفجر، فتعين أن يكون الإتيان بمفعوله المطلق للمبالغة في العدد، كقوله تعالى: ونزلناه تنزيلا [الإسراء: ١٠٦] ، وهو المناسب لقوله:

خلالها، لأن الجنة تتخللها شعب النهر لسقي الأشجار. فجمع الأنهار باعتبار تشعب ماء النهر إلى شعب عديدة. ويدل لهذا المعنى إجماع القراء على قراءة فتفجر هنا بالتشديد مع اختلافهم في الذي قبله. وهذا من لطائف معاني القراءات المروية عن النبيء صلى الله عليه وسلم فهي من أفانين إعجاز القرآن.

وقولهم: أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا انتقال من تحديه بخوارق فيها منافع لهم إلى تحديه بخوارق فيها مضرتهم، يريدون بذلك التوسيع عليه، أي فليأتهم بآية على ذلك ولو في مضرتهم. وهذا حكاية لقولهم كما قالوا. ولعلهم أرادوا به الإغراق في التعجيب من ذلك فجمعوا بين جعل الإسقاط

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/٣٠٧

لنفس السماء. وعززوا تعجيبهم بالجملة المعترضة وهي كما زعمت إنباء بأن ذلك لا يصدق به أحد. وعنوا به قوله تعالى:
إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء [سبأ: ٩] وبقوله:
وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم [الطور: ٤٤] ، إذ هو تهديد لهم بأشراط الساعة وإشرافهم على الحساب. وجعلوا (من) في قوله تعالى: كسفا من السماء [الطور: ٤٤] تبعيضية، أي قطعة من الأجرام السماوية، فلذلك أبوا تعدية فعل تسقط إلى ذات السماء. واعلم أن هذا يقتضي أن تكون هاتان الآيتان أو إحداها نزلت قبل سورة الإسراء وليس ذلك بمستبعد.
و «الكسف» - بكسر الكاف وفتح السين- جمع كسفة، وهي القطعة من الشيء مثل سدرة وسدر. وكذلك قرأه نافع، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم، وأبو جعفر. وقرأه الباقون- بسكون السين- بمعنى المفعول، أي المكسوف بمعنى المقطوع.". (١)

٥١. ٢٠-"عنه، فكان الإيجاز يقتضي أن يقول: عصاي. فلما قال: هي عصاي كان الأسلوب أسلوب كلام من يتعجب من الاحتياج إلى الإخبار، كما يقول سائل لما رأى رجلا يعرفه وآخر لا يعرفه: من هذا معك؟ فيقول: فلان، فإذا لقيهما مرة أخرى وسأله: من هذا معك؟ أجابه: هو فلان، ولذلك عقب موسى جوابه ببيان الغرض من اتخاذها لعله أن يكون هو قصد السائل فقال: أتوكؤا عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى. ففصل ثم أجمل لينظر مقدار اقتناع السائل حتى إذا استزاده بيانا زاده.
والباء في قوله بيمينك للظرفية أو الملابسة.
والتوكؤ: الاعتماد على شيء من المتاع، والاتكاء كذلك، فلا يقال: توكأ على الحائط ولكن يقال: توكأ على وسادة، وتوكأ على عصا.
والهش: الخبط، وهو ضرب الشجرة بعصا ليتساقط ورقها، وأصله متعد إلى الشجرة فلذلك ضمت عينه في المضارع، ثم كثر حذف مفعوله وعدي إلى ما لأجله يوقع الهش بعلى لتضمين (أهش) معنى أسقط على غنمي الورق فتأكله، أو استعملت (على) بمعنى الاستعلاء المجازي كقولهم: هو وكيل على فلان.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠٩/١٥

ومآرب: جمع مأربة، مثلث الراء: الحاجة، أي أمور أحتاج إليها. وفي العصا منافع كثيرة روي بعضها عن ابن عباس، وقد أفرد الجاحظ من كتاب «البيان والتبيين» بابا لمنافع العصا. ومن أمثال العرب: «هو خير من تفارق العصا» . ومن **لطائف** معنى الآية ما أشار إليه بعض الأدباء من أن موسى أطنب في جوابه بزيادة على ما في السؤال لأن المقام مقام تشريف ينبغي فيه طول الحديث.

والظاهر أن قوله مآرب أخرى حكاية لقول موسى بمماثله، فيكون إيجازا بعد الإطناب، وكان يستطيع أن يزيد من ذكر فوائد". (١)

٥٢. ٢١-"الله تعالى بدون وساطة التطورات الحيوانية للتكوين النسلي.

وجعلها وابنها آية هو من أسباب تشريفهما والتنويه بهما إذ جعلهما الله وسيلة لليقين بقدرته ومعجزات أنبيائه كما قال في [سورة المؤمنين: ٥٠] وجعلنا ابن مريم وأمه آية. وبهذا الاعتبار حصل تشريف بعض المخلوقات فأقسم الله بها نحو: والليل إذا يغشى [الليل:

١] ، والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها [الشمس: ١- ٢] .

وإفراد الآية لأنه أريد بها الجنس. وحيث كان المذكور ذاتين فأخبر عنهما بأنهما آية علم أن كل واحد آية خاصة. ومن **لطائف** هذا الإفراد أن بين مريم وابنها حالة مشتركة هي آية واحدة، ثم في كل منهما آية أخرى مستقلة باختلاف حال الناظر المتأمل.

[٩٢]

[سورة الأنبياء (٢١) : آية ٩٢]

إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون (٩٢)

إن مكسورة الهمزة عند جميع القراء، فهي ابتداء كلام. واتفقت القراءات المشهورة على رفع أمتكم.

والأظهر أن الجملة محكية بقول محذوف يدل عليه السياق. وحذف القول في مثله شائع في القرآن.

والخطاب للأنبياء المذكورين في الآيات السابقة. والوجه حينئذ أن يكون القول المحذوف مصوغا في صيغة اسم الفاعل منصوبا على الحال. والتقدير: قائلين لهم إن هذه أمتكم إلى آخره. والمقول محكي بالمعنى، أي قائلين لكل واحد من رسلنا وأنبيائنا المذكورين ما تضمنته جملة إن هذه أمتكم.

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/٢٠٦

فصيغة الجمع مراد بها التوزيع، وهي طريقة شائعة في الإخبار عن الجماعات. ومنه قولهم: ركب القوم دوابهم، فتكون هذه الآية جارية على أسلوب نظيرها في سورة المؤمنين. وفيه ما يزيد هذه توضيحا فإنه ورد هنالك ذكر عدة من الأنبياء تفصيلا وإجمالا، كما ذكروا في هذه السورة. ثم عقب بقوله تعالى: يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم [المؤمنون: ٥١] وأن- بفتح الهمزة". (١)

٥٣. ٢٢-"وأفيد مضمون الجملة الذي هو حصول الصلوات والرحمة والهدى للصابرين بطريقة التبشير على لسان الرسول تكريما لشأنه، وزيادة في تعلق المؤمنين به بحيث تحصل خيراتهم بواسطته، فلذلك كان من **لطائف** القرآن إسناد البلوى إلى الله بدون واسطة الرسول، وإسناد البشارة بالخير الآتي من قبل الله إلى الرسول.

والكلام على الصبر وفضائله تقدم في قوله تعالى: واستعينوا بالصبر والصلاة [البقرة: ٤٥] .

ووصف الصابرين بأنهم: الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إلخ لإفادة أن صبرهم أكمل الصبر إذ هو صبر مقترن ببصيرة في أمر الله تعالى إذ يعلمون عند المصيبة أنهم ملك لله تعالى يتصرف فيهم كيف يشاء فلا يجزعون مما يأتيهم، ويعلمون أنهم صائرون إليه فيثيبهم على ذلك، فالمراد من القول هنا القول المطابق للاعتقاد إذ الكلام إنما وضع للصدق، وإنما يكون ذلك القول معتبرا إذا كان تعبيرا عما في الضمير فليس لمن قال هاته الكلمات بدون اعتقاد لها فضل وإنما هو كالذي ينعق بما لا يسمع، وقد علمهم الله هذه الكلمة الجامعة لتكون شعارهم عند المصيبة، لأن الاعتقاد يقوى بالتصريح لأن استحضار النفس للمدركات المعنوية ضعيف يحتاج إلى التقوية بشيء من الحس، ولأن في تصريحهم بذلك إعلانا لهذا الاعتقاد وتعليما له للناس. والمصيبة يأتي الكلام عليها عند قوله تعالى:

فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علي [النساء: ٧٢] في سورة النساء.

والتوكيد بإن في قولهم: إنا لله لأن المقام مقام اهتمام، ولأنه ينزل المصاب فيه منزلة المنكر كونه ملكا لله تعالى وعبدا له إذ تنسيه المصيبة ذلك ويحول هولها بينه وبين رشده، واللام فيه للملك.

والإتيان باسم الإشارة في قوله: أولئك عليهم صلوات من ربهم للتنبيه على أن المشار إليه هو ذلك الموصوف بجميع الصفات السابقة على اسم الإشارة، وأن الحكم الذي يرد بعد اسم الإشارة مترتب

---

(١) التحرير والتنوير ١٣٩/١٧

على تلك الأوصاف مثل: أولئك على هدى من ربهم [البقرة: ٥] وهذا بيان لجزاء صبرهم.
والصلوات هنا مجاز في التزكيات والمغفرات ولذلك عطفت عليها الرحمة التي هي
من معاني الصلاة مجازا في مثل قوله تعالى: إن الله وملائكته يصلون على النبي [الأحزاب: ٥٦] .
وحقيقة الصلاة في كلام العرب أنها أقوال تنبئ عن محبة الخير لأحد، ولذلك كان". (١)

٥٤. ٢٣-"وفي البخاري عن كعب بن عجرة قال: «حملت إلى النبيء والقمل يتناثر على وجهي، فقال ما كنت أرى الجهد قد بلغ بك هذا، أما تجد شاة؟ قلت: لا، قال: صم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام واحلق رأسك، فنزلت هذه الآية
في خاصة وهي لكم عامة اهـ» ومن **لطائف** القرآن ترك التصريح بما هو مرذول من الألفاظ.
وقوله: ففدية من صيام محذوف المسند إليه لظهوره أي عليه، والمعنى فليحلق رأسه وعليه فدية، وقرينة المحذوف قوله: ولا تحلقوا رؤسكم وقد أجمل الله الفدية ومقدارها وبينه حديث كعب بن عجرة.
والنسك بضمتين وبسكون السين مع تثليث النون العبادة ويطلق على الذبيحة المقصود منها التعبد وهو المراد هنا مشتق من نسك كنصر وكرم إذا عبد وذبح لله وسمي العابد ناسكا، وأغلب إطلاقه على الذبيحة المتقرب بها إلى معبود
وفي الحديث: «والآخر يوم تأكلون فيه من نسككم»
يعني الضحية.
فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام.
الفاء للعطف على أحصرتم إن كان المراد من الأمن زوال الإحصار المتقدم، ولعلها نزلت بعد أن فرض الحج، لأن فيها ذكر التمتع وذكر صيام المتمتع إن لم يجد هديا ثلاثة أيام في مدة الحج وسبعة إذا رجع إلى أفقه وذلك لا يكون إلا بعد تمكنهم من فعل الحج. والفاء لمجرد التعقيب الذكري.
وجيء بإذا لأن فعل الشرط مرغوب فيه، والأمن ضد الخوف، وهو أيضا السلامة من كل ما يخاف منه أمن كفرح أمنا، أمانا، وأمنا، وأمنة وإمنا بكسر الهمزة وهو قاصر بالنسبة إلى المأمون منه فيتعدى بمن تقول: أمنت من العدو، ويتعدى إلى المأمون تقول: أمنت فلانا إذا جعلته آمنا منك، والأظهر أن

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٥٧

الأمن ضد الخوف من العدو ما لم يصرح بمتعلقه وفي القرآن ثم أبلغه مأمنه [التوبة: ٦] فإن لم يذكر له متعلق نزل منزلة اللازم فدل على عدم الخوف من القتال وقد تقدم في قوله تعالى: رب اجعل هذا بلدا آمنا [البقرة: ١٢٦] .". (١)

٥٥. ٢٤-"في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن [النساء: ١٢٧] وقال: فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن [البقرة: ٢٣٢] فحدد الله لمعاملات النساء حدودا، وشرع لهن أحكاما، قد أعلنتها على الإجمال هذه الآية العظيمة، ثم فصلتها الشريعة تفصيلا، ومن **لطائف** القرآن في التنبيه إلى هذا عطف المؤمنات على المؤمنين عند ذكر كثير من الأحكام أو الفضائل، وعطف النساء على الرجال.

وقوله: بالمعروف الباء للملابسة، والمراد به ما تعرفه العقول السالمة، المجردة من الانحياز إلى الأهواء، أو العادات أو التعاليم الضالة، وذلك هو الحسن وهو ما جاء به الشرع نصا أو قياسا، أو اقتضته المقاصد الشرعية أو المصلحة العامة، التي ليس في الشرع ما يعارضها. والعرب تطلق المعروف على ما قابل المنكر أي وللنساء من الحقوق مثل الذي عليهن ملابسا ذلك دائما للوجه غير المنكر شرعا وعقلا، وتحت هذا تفاصيل كبيرة تؤخذ من الشريعة، وهي مجال لأنظار المجتهدين. في مختلف العصور والأقطار. فقول من يرى أن البنت البكر يجبرها أبوها على النكاح، قد سلبها حق المماثلة للابن، فدخل ذلك تحت الدرجة، وقول من منع جبرها وقال لا تزوج إلا برضاها قد أثبت لها

حق المماثلة للذكر، وقول من منع المرأة من التبرع بما زاد على ثلاثها إلا بإذن زوجها قد سلبها حق المماثلة للرجل، وقول من جعلها كالرجل في تبرعها بما لها قد أثبت لها حق المماثلة للرجل، وقول من جعل للمرأة حق الخيار في فراق زوجها إذا كانت به عاهة قد جعل لها حق المماثلة وقول من لم يجعل لها ذلك قد سلبها هذا الحق. وكل ينظر إلى أن ذلك من المعروف أو من المنكر. وهذا الشأن في كل ما أجمع عليه المسلمون من حقوق الصنفين، وما اختلفوا فيه من تسوية بين الرجل والمرأة، أو من تفرقة، كل ذلك منظور فيه إلى تحقيق قوله تعالى: بالمعروف قطعا أو ظنا فكونوا من ذلك بمحل التيقظ، وخذوا بالمعنى دون التلفظ.

ودين الإسلام حري بالعناية بإصلاح شأن المرأة، وكيف لا وهي نصف النوع الإنساني، والمربية الأولى،

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٢٢٥

التي تفيض التربية السالكة إلى النفوس قبل غيرها، والتي تصادف عقولا لم تمسها وسائل الشر، وقلوبا لم تنفذ إليها خراطيم الشيطان. فإذا كانت تلك التربية خيرا، وصدقا، وصوابا، وحقا، كانت أول ما ينتقش في تلك الجواهر الكريمة، وأسبق ما يمتزج بتلك الفطر السليمة، فهيأت لأمثالها، من خواطر الخير، منزلا رحبا، ولم تغادر لأغيارها من الشرور كرامة ولا حبا.". (١)

٥٦. ٢٥-"تعملون.

فحرف أم فيه بمعنى (بل) للانتقال ومعادل همزة الاستفهام المقدرة محذوف دل عليه قوله أما ذا كنتم تعملون. والتقدير: أكذبتم بآياتي أم لم تكذبوا فماذا كنتم تعملون إن لم

تكذبوا فإنكم لم توقنوا فماذا كنتم تعملون في مدة تكرير دعوتكم إلى الإسلام. ومن هنا حصل الإلجاء إلى الاعتراف بأنهم كذبوا.

ومن **لطائف** البلاغة أنه جاء بالمعادل الأول مصرحا به لأنه المحقق منهم فقال أكذبتم بآياتي وحذف معادله الآخر تنبيها على انتفائه كأنه قيل: أهو ما عهد منكم من التكذيب أم حدث حادث آخر، فجعل هذا المعادل مترددا فيه، وانتقل الكلام إلى استفهام. وهذا تبكيت لهم. قال في الكشاف» : «ومثاله أن تقول لراعيك وقد علمت أنه راعي سوء: أتأكل نعمي أم ماذا تعمل بها، فتجعل ما ابتدأت به وجعلته أساس كلامك هو الذي صح عندك من أكله وفساده وترمي بقولك: أم ماذا تعمل بها، مع علمك أنه لا يعمل بها إلا الأكل لتبهته. ويجوز أن يكون الاستفهام تقريريا وتكون أم متصلة وما بعدها هو معادل الاستفهام باعتبار المعنى كأنه قيل: أكذبتم أم لم تكذبوا فماذا كنتم تعملون إن لم تكذبوا فإنكم لم تتبعوا آياتي» .

وجملة ولم تحيطوا بها علما في موضع الحال، أي كذبتم دون أن تحيطوا علما بدلالة الآيات. وانتصب علما على أنه تمييز نسبة تحيطوا، أي لم يحط علمكم بها، فعدل عن إسناد الإحاطة إلى العلم إلى إسنادها إلى ذوات المخاطبين ليقع تأكيد الكلام بالإجمال في الإسناد ثم التفصيل بالتمييز.

وإحاطة العلم بالآيات مستعملة في تمكن العلم حتى كأنه ظرف محيط بها وهذا تعيير لهم وتوبيخ بأنهم كذبوا بالآيات قبل التدبر فيها.

وأما ذا استفهام واسم إشارة وهو بمعنى اسم الموصول إذا وقع بعد (ما) .

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٤٠٠

والمشار إليه هو مضمون الجملة بعده في قوله كنتم تعملون. ولكون المشار إليه في مثل هذا هو الجملة صار اسم الإشارة بعد الاستفهام في قوة موصول فكأنه قيل: ما الذي كنتم تعملون؟ فذلك معنى قول النحويين: إن (ذا) بعد (ما) و (من) الاستفهاميتين يكون بمعنى (ما) الموصولة فهو بيان معنى لا بيان وضع.". (١)

٥٧. ٢٦-"«ليس ص من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم سجد فيها» .

وفيه عن أبي سعيد الخدري قال: «قرأ رسول الله وهو على المنبر ص فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه فلما كان يوم آخر قرأها فلما بلغ السجدة تشزن الناس للسجود (أي تهيأوا وتحركوا لأجله) فقال رسول الله: إنما هي توبة نبيء ولكني رأيتكم تشزنتم للسجود فنزل فسجد وسجدوا»
، وقول أبي حنيفة فيها مثل قول مالك ولم ير الشافعي سجودا في هذه الآية إما لأجل
قول النبيء صلى الله عليه وسلم: «إنما هي توبة
نبيء»
فرجع أمرها إلى أنها شرع من قبلنا، والشافعي لا يرى شرع من قبلنا دليلا.
ووجه السجود فيها عند من رآه أن ركوع داود هو سجود شريعتهم فلما اقتدى به النبيء صلى الله عليه وسلم أتى في اقتدائه بما يساوي الركوع في شريعة الإسلام وهو السجود. وقال أبو حنيفة: الركوع يقوم مقام سجود التلاوة أخذا من هذه الآية.
واسم الإشارة في قوله: فغفرنا له ذلك إلى ما دلت عليه خصومة الخصمين من تمثيل ما فعله داود بصورة قضية الخصمين، وهذا من **لطائف** القرآن إذ طوى القصة التي تمثل له فيها الخصمان ثم أشار إلى المطوي باسم الإشارة، وأتبع الله الخبر عن الغفران له بما هو أرفع درجة وهو أنه من المقربين عند الله المرضي عنهم وأنه لم يوقف به عند حد الغفران لا غير. والزلفى: القربى، وهو مصدر أو اسم مصدر. وتأكيد الخبر لإزالة تو هم أن الله غضب عليه إذ فتنه تنزيلا لمقام الاستغراب منزلة مقام الإنكار.
والمئاب: مصدر ميمي بمعنى الأوب. وهو الرجوع. والمراد به: الرجوع إلى الآخرة. وسمي رجوعا لأنه

---

(١) التحرير والتنوير ٤١/٢٠

رجوع إلى الله، أي إلى حكمة البحث ظاهرا وباطنا قال تعالى: إليه أدعوا وإليه مآب [الرعد: ٣٦] .
وحسن المئاب: حسن المرجع، وهو أن يرجع رجوعا حسنا عند نفسه وفي". (١)

٥٨. ٢٧-"وقد جاءت تربية الشريعة للأمة على ذم القنوط، قال تعالى حكاية عن إبراهيم قال
ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون [الحجر: ٥٦] ،
وفي الحديث «انتظار الفرج بعد الشدة عبادة»
. فالآية وصفت خلقين ذميمين: أحدهما خلق البطر بالنعمة والغفلة عن شكر الله عليها. وثانيهما اليأس من رجوع النعمة عند فقدها. وفي نظم الآية **لطائف** من البلاغة:
الأولى: التعبير عن دوام طلب النعمة بعدم السآمة كما علمته.
الثانية: التعبير عن محبة الخير بدعاء الخير.
الثالثة: التعبير عن إضافة الضر بالمس الذي هو أضعف إحساس الإصابة قال تعالى: لا يمسهم السوء [الزمر: ٦١] .
الرابعة: اقتران شرط مس الشر ب إن التي من شأنها أن تدخل على النادر وقوعه فإن إصابة الشر الإنسان نادرة بالنسبة لما هو مغمور به من النعم.
الخامسة: صيغة المبالغة في فيؤس.
السادسة: إتباع يؤس ب قنوط الذي هو تجاوز إحساس اليأس إلى ظاهر البدن بالانكسار، وهو من شدة يأسه، فحصلت مبالغتان في التعبير عن يأسه بأنه اعتقاد في ضميره وانفعال في سحناته. فالمشرك يتأصل فيه هذا الخلق ويتزايد باستمرار الزمان.
والمؤمن لا تزال تربية الإيمان تكفه عن هذا الخلق حتى يزول منه أو يكاد.
ثم بينت الآية خلقا آخر في الإنسان وهو أنه إذا زال عنه كربه وعادت إليه النعمة نسي ما كان فيه من الشدة ولم يتفكر في لطف الله به فبطر النعمة، وقال: قد استرجعت خيراتي بحيلتي وتدبيري، وهذا الخير حق لي حصلت عليه، ثم إذا كان من أهل الشرك وهم المتحدث عنهم تراه إذا سمع إنذار النبيء صلى الله عليه وسلم بقيام الساعة أو هجس في نفسه هاجس عاقبة هذه الحياة قال لمن يدعوه إلى

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤١/٢٣

العمل ليوم". (١)

٥٩. ٢٨-"جزاء ما كسبوا، أي في حال أن الجزاء واقع عليهم.

وجملة والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات حال من الظالمين، والواو واو الحال، أي ترى الظالمين في إشفاق في حال أن الذين آمنوا يطمئنون في روضات الجنات، وفي هذه الحال دلالة على أن الذين آمنوا قد استقروا في الروضات من قبل عرض الظالمين على الحساب وإشفاقهم من تبعاته. وهذا من تضاد شأني الفريقين في الآخرة على عكسه بما كانوا عليه في الدنيا المتقدم في قوله: يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها [الشورى: ١٨] ، أي فاليوم انقلب إشفاق المؤمنين اطمئنانا واطمئنان المشركين إشفاقا، وشتان بين الاطمئنانين والإشفاقين، وبهذه المضادة في الحالتين وأسبابهما صح اعتبار كينونة الذين آمنوا في الجنة حالا من الظالمين.

والروضات: جمع روضة، وهي اسم لمجموع ماء وشجر حاف به وخضرة حوله.

وجملة لهم ما يشاؤن عند ربهم خبر ثان عن الذين آمنوا، وعند ظرف متعلق بالكون الذي تعلق به الجار والمجرور في لهم ما يشاؤن.

والعندية تشريف لمعنى الاختصاص الذي أفادته اللام في قوله: لهم وعناية بما يعطونه من رغبة. والمعنى: ما يشاؤونه حق لهم محفوظ عند ربهم. ولا ينبغي جعل عند متعلقا بفعل يشاؤن لأن عند حينئذ تكون ظرفا لمشيئتهم، أي مشيئة منهم متوجهة إلى ربهم، فتؤول المشيئة إلى معنى الطلب أن يعطيهم ما يطلبون فيفوت قصد التشريف والعناية.

ولك أن تجعل عند ربهم خبرا ثالثا عن الذين آمنوا، أي هم عند ربهم، أي في ضيافته وقراه، كما قال تعالى: إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر [القمر: ٥٤، ٥٥] ، ويكون ترتيب الأخبار الثلاثة جاريا على نمط الارتقاء من الحسن إلى الأحسن بأن: أخبر عنهم بأنهم نزلوا في أحسن منزل، ثم أحضر لهم ما يشتهون، ثم ارتقى إلى ما هو أعظم وهو كونهم عند ربهم على حد قوله تعالى: ورضوان من الله أكبر [التوبة: ٧٢] . ومن لطائف هذا الوجه أنه جاء على الترتيب المعهود". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١١/٢٥

(٢) التحرير والتنوير ٧٩/٢٥

٦٠. ٢٩-"خمسين صلاة ثم خفف الله منها حتى بلغت خمس صلوات وأنه سمع قوله تعالى: «أتممت فريضتي وخففت عن عبادي»

. وأشارت إليه سورة النجم [٦، ١٢] بقوله تعالى: فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على ما يرى. والقول بأنه سمع كلام الله ليلة أسري به إلى السماء مروي عن علي بن أبي طالب وابن مسعود وابن عباس وجعفر بن محمد الصادق والأشعري والواسطي، وهو الظاهر لأن فضل محمد صلى الله عليه وسلم على جميع المرسلين يستلزم أن يعطيه الله من أفضل ما أعطاه رسله عليهم السلام جميعا.

النوع الثالث: أن يرسل الله الملك إلى النبيء فيبلغ إليه كلاما يسمعه النبيء ويعيه، وهذا هو غالب ما يوجه إلى الأنبياء من كلام الله تعالى، قال تعالى في ذكر زكرياء فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيي [آل عمران: ٣٩] ، وقال في إبراهيم وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا [الصافات: ١٠٤، ١٠٥] وهذا الكلام يأتي بكيفية

وصفها النبيء صلى الله عليه وسلم للحارث بن هشام وقد سأل رسول الله «كيف يأتيك الوحي؟ فقال: أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه أي عن جبريل ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول»

. فالرسول في قوله تعالى: أو يرسل رسولا: هو الملك جبريل أو غيره، وقوله:

فيوحي بإذنه ما يشاء سمى هذا الكلام وحيا على مراعاة الإطلاق القرآني الغالب كما تقدم نحو قوله: وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى [النجم:

٣- ٥] وهو غير المراد من قوله: إلا وحيا بقرينة التقسيم والمقابلة.

ومن لطائف نسج هذه الآية ترتيب ما دل على تكليم الله الرسل بدلالات فجيء بالمصدر أولا في قوله: إلا وحيا وجيء بما يشبه الجملة ثانيا وهو قوله: من وراء حجاب، وجيء بالجملة الفعلية ثالثا بقوله: يرسل رسولا. وقرأ نافع أو يرسل برفع يرسل على الخبرية، والتقدير: أو هو". (١)

٦١. ٣٠-"والقرب هنا كناية عن إحاطة العلم بالحال لأن القرب يستلزم الاطلاع، وليس هو قربا بالمكان بقرينة المشاهدة فآل الكلام إلى التشبيه البليغ تشبيه معقول بمحسوس، وهذا من بناء التشبيه

(١) التحرير والتنوير ١٤٤/٢٥

على الكناية بمنزلة بناء المجاز على المجاز.

ومن **لطائف** هذا التمثيل أن حبل الوريد مع قربه لا يشعر الإنسان بقربه لخفائه، وكذلك قرب الله من الإنسان بعلمه قرب لا يشعر به الإنسان فلذلك اختير تمثيل هذا القرب بقرب حبل الوريد. وبذلك فاق هذا التشبيه لحالة القرب كل تشبيه من نوعه ورد في كلام البلغاء. مثل قولهم: هو منه مقعد القابلة ومعقد الإزار، وقول زهير:

فهن ووادي الرس كاليد للفم وقول حنظلة بن سيار وهو حنظلة بن ثعلبة بن سيار العجلي مخضرم:

كل امرئ مصبح في إهله ... والموت أدنى من شراك نعله

[١٧، ١٨]

[سورة ق (٥٠) : الآيات ١٧ إلى ١٨]

إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد (١٧) ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد (١٨)

يتعلق إذ بقوله أقرب [ق: ١٦] لأن اسم التفضيل يعمل في الظرف وإن كان لا يعمل في الفاعل ولا في المفعول به واللغة تتوسع في الظروف والمجرورات ما لا تتوسع في غيرها، وهذه قاعدة مشهورة ثابتة والكلام تخلص للموعظة والتهديد بالجزاء يوم البعث والجزاء من إحصاء الأعمال خيرها وشرها المعلومة من آيات كثيرة في القرآن. وهذا التخلص بكلمة إذ الدالة على الزمان من ألطف التخلص.

وتعريف المتلقيان تعريف العهد إذا كانت الآية نزلت بعد آيات ذكر فيها الحفظة،

أو تعريف الجنس، والتثنية فيها للإشارة إلى أن هذا الجنس مقسم اثنين اثنين.

والتلقي: أخذ الشيء من يد معطيه. استعير لتسجيل الأقوال والأعمال حين صدورها من الناس.". (١)

٦٢. ٣١-"وقوله: منه صفة ل نذير قدمت على الموصوف فصارت حالا.

وحرف (من) للابتداء المجازي، أي مأمور له بأن أبلغكم.

وعطف ولا تجعلوا مع الله إلها آخر على ففروا إلى الله نهي عن نسبة الإلهية إلى أحد غير الله. فجمع بين الأمر والنهي مبالغة في التأكيد بنفي الضد لإثبات ضده كقوله: وأضل فرعون قومه وما هدى

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠١/٢٦

[طه: ٧٩] .

ومن لطائف فخر الدين أن قوله تعالى: إني لكم منه نذير جمع الرسول والمرسل إليهم والمرسل. [٥٢]

[سورة الذاريات (٥١) : آية ٥٢]

كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون (٥٢)

كلمة كذلك فصل خطاب تدل على انتهاء حديث والشروع في غيره، أو الرجوع إلى حديث قبله أتى عليه الحديث الأخير. والتقدير: الأمر كذلك. والإشارة إلى ما مضى من الحديث، ثم يورد بعده حديث آخر والسامع يرد كلا إلى ما يناسبه، فيكون ما بعد اسم الإشارة متصلا بأخبار الأمم التي تقدم ذكرها من قوم لوط ومن عطف عليهم.

أعقب تهديد المشركين بأن يحل بهم ما حل بالأمم المكذبين لرسل الله من قبلهم بتنظيرهم بهم في مقالهم، وقد تقدم ورود كذلك فصلا للخطاب عند قوله تعالى:

كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا في سورة الكهف [٩١] ، فقوله: كذلك فصل وجملة ما أتى الذين من قبلهم من رسول الآية مستأنفة استئنافا ابتدائيا.

ولك أن تجعل قوله: كذلك ما أتى الذين من قبلهم إلخ مبدأ استئناف عودا إلى الإنحاء على المشركين في قولهم المختلف بأنواع التكذيب في التوحيد والبعث وما يتفرع على ذلك.". (١)

٦٣. ٣٢-"إذ كان الرجال الكافرون يظنون أن العصمة التي لهم على أزواجهم المؤمنات مثبتة أنهم حل لهم.

وعبر عن الثانية بجملة ولا هم يحلون لهن فعكس الإخبار بالحل إذ جعل خبرا عن ضمير الرجال، وعدي الفعل إلى المحلل باللام داخلة على ضمير النساء فأفاد أنهم لا يحل لهن أزواجهن الكافرون ولو بقي الزوج في بلاد الإسلام.

ولهذا ذكرت الجملة الثانية ولا هم يحلون لهن كالتتمة لحكم الجملة الأولى، وجيء في الجملة الثانية بالمسند فعلا مضارعا لدلالته على التجدد لإفادة نفي الطماعية في التحليل ولو بتجدده في الحال

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/٢٧

بعقد جديد أو اتفاق جديد على البقاء في دار الإسلام خلافا لأبي حنيفة إذ قال: إن موجب الفرقة هو اختلاف الدارين لا اختلاف الدين.

ويجوز في الآية وجه آخر وهو أن يكون المراد تأكيد نفي الحال فبعد أن قال: لا هن حل لهم وهو الأصل كما علمت آنفا أكد بجملة ولا هم يحلون لهن أي أن انتفاء الحل حاصل من كل جهة كما يقال: لست منك ولست مني.

ونظيره قوله تعالى: هن لباس لكم وأنتم لباس لهن في سورة البقرة [١٨٧] تأكيدا لشدة التلبس والاتصال من كل جهة.

وفي الكلام محسن العكس من المحسنات البديعية مع تغيير يسير بين حل ويحلون اقتضاه المقام، وإنما يوفر حظ التحسين بمقدار ما يسمح له به مقتضى حال البلاغة.

وآتوهم ما أنفقوا.

المراد ب ما أنفقوا ما أعطوه من المهور، والعدول عن إطلاق اسم المهور والأجور على ما دفعه المشركون لنسائهم اللاء أسلمن من **لطائف** القرآن لأن أولئك النساء أصبحن غير زوجات. فألغي إطلاق اسم المهور على ما يدفع لهم.". (١)

٦٤. ٣٣-"بعضهم: افتخر اليهود بأنهم أهل كتاب.

والعرب لا كتاب لهم. فأبطل الله ذلك بشبههم بالحمار يحمل أسفارا.

ومعنى حملوا: عهد بها إليهم وكلفوا بما فيها فلم يفوا بما كلفوا، يقال: حملت فلانا أمر كذا فاحتمله، قال تعالى: إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا سورة الأحزاب [٧٢] .

وإطلاق الحمل وما تصرف منه على هذا المعنى استعارة، بتشبيه إيكال الأمر بحمل الحمل على ظهر الدابة، وبذلك كان تمثيل حالهم بحال الحمار يحمل أسفارا تمثيلا للمعنى المجازي بالمعنى الحقيقي. وهو من **لطائف** القرآن.

وثم للتراخي الرتبي فإن عدم وفائهم بما عهد إليهم أعجب من تحملهم إياه.

وجملة يحمل أسفارا في موضع الحال من الحمار أو في موضع الصفة لأن تعريف الحمار هنا تعريف

---

(١) التحرير والتنوير ١٥٨/٢٨

جنس فهو معرفة لفظا نكرة معنى، فصح في الجملة اعتبار الحالية والوصف.

وهذا التمثيل مقصود منه تشنيع حالهم وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس المتعارف، ولذلك ذيل بذم حالهم بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله.

وبئس فعل ذم، أي ساء حال الذين كذبوا بكتاب الله فهم قد ضموا إلى جهلهم بمعاني التوراة تكذيبا بآيات الله وهي القرآن.

ومثل القوم، فاعل بئس. وأغنى هذا الفاعل عن ذكر المخصوص بالذم لحصول العلم بأن المذموم هو حال القوم المكذبين فلم يسلك في هذا التركيب طريق الإبهام على شرط التفسير لأنه قد سبقه ما بينه بالمثل المذكور قبله في قوله: كمثل الحمار يحمل أسفارا. فصار إعادة لفظ المثل ثقيلا في الكلام أكثر من ثلاث مرات.

وهذا من تفننات القرآن. والذين كذبوا صفة القوم.

وجملة والله لا يهدي القوم الظالمين تذييل إخبارا عنهم بأن سوء حالهم لا يرجى لهم منه انفكاك لأن الله حرمهم اللطف والعناية بإنقاذهم لظلمهم بالاعتداء". (١)

٦٥. ٣٤-"وانتصب فعل فأصدق على إضمار (أن) المصدرية إضمارا واجبا في جواب الطلب.

وأما قوله: وأكن فقد اختلف فيه القراء.

فأما الجمهور فقرأوه مجزوما بسكون آخره على اعتباره جوابا للطلب مباشرة لعدم وجود فاء السببية فيه، واعتبار الواو عاطفة جملة على جملة وليست عاطفة مفردا على مفرد. وذلك لقصد تضمين الكلام معنى الشرط زيادة على معنى التسبب فيغني الجزم عن فعل شرط. فتقديره: إن تؤخرني إلى أجل قريب أكن من الصالحين، جمعا بين التسبب المفاد بالفاء، والتعليق الشرطي المفاد بجزم الفعل.

وإذا قد كان الفعل الأول هو المؤثر في الفعلين الواقع أحدهما بعد فاء السببية والآخر بعد الواو العاطفة عليه. فقد أفاد الكلام التسبب والتعليق في كلا الفعلين وذلك يرجع إلى محسن الاحتباك. فكأنه قيل: لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكون من الصالحين. إن تؤخرني إلى أجل قريب أصدق وأكن من الصالحين.

ومن لطائف هذا الاستعمال أن هذا السائل بعد أن حث سؤاله أعقبه بأن الأمر ممكن فقال: إن

---

(١) التحرير والتنوير ٢١٤/٢٨

تؤخرني إلى أجل قريب أصدق وأكن من الصالحين. وهو من بدائع الاستعمال القرآني لقصد الإيجاز وتوفير المعاني.

ووجه أبو علي الفارسي والزجاج قراءة الجمهور بجعل وأكن معطوفا على محل فأصدق. وقرأه أبو عمرو وحده من بين العشرة وأكون بالنصب والقراءة رواية متواترة وإن كانت مخالفة لرسم المصاحف المتواترة.

وقيل: إنها يوافقها رسم مصحف أبي بن كعب ومصحف ابن مسعود.

وقرأ بذلك الحسن والأعمش وابن محيض من القراءات غير المشهورة، ورويت عن مالك بن دينار وابن جبير وأبي رجاء. وتلك أقل شهرة.

واعتذر أبو عمرو عن مخالفة قراءته للمصحف بأن الواو حذفت في الخط اختصارا يريد أنهم حذفوا صورة إشباع الضمة وهو الواو اعتمادا على نطق القارئ". (١)

٦٦. ٣٥-"ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل [الروم: ٥٨] . ونحو ذلك وتقديم المجرور باللام على المفعول للاهتمام بإيقاظ الذين كفروا.

فمعنى ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأت نوح وامرأت لوط، أن الله جعل حالة هاتين المرأتين عظة وتنبيها للذين كفروا، أي ليذكرهم بأن الله لا يصرفه عن وعيده صارف فلا يحسبوا أن لهم شفعاء عند الله، ولا أن مكانهم من جوار بيته وعمارة مسجده وسقاية حجيجه تصرف غضب الله عنهم، فإن هم أقلعوا عن هذا الحسبان أقبلوا على التدبر في النجاة من وعيده بالنظر في دلائل دعوة القرآن وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم فلو كان صارف يصرف الله عن غضبه لكان أولى الأشياء بذلك مكانة هاتين المرأتين من زوجيهما رسولي رب العالمين.

ومناسبة ضرب المثل بامرأة نوح وامرأة لوط دون غيرهما من قرابة الأنبياء نحو أبي إبراهيم وابن نوح عليهما السلام لأن ذكر هاتين المرأتين لم يتقدم. وقد تقدم ذكر أبي إبراهيم وابن نوح، لتكون في ذكرهما فائدة مستجدة، وليكون في ذكرهما عقب ما سبق من تمالؤ أمي المؤمنين على زوجهما صلى الله عليه وسلم تعريض لطيف بالتحذير من خاطر الاعتزاز بغناء الصلة الشريفة عنهما في الوفاء بحق ما يجب من الإخلاص للنبيء صلى الله عليه وسلم ليكون الشبه في التمثيل أقوى. فعن مقاتل «يقول الله سبحانه لعائشة وحفصة: لا تكونا بمنزلة امرأة نوح وامرأة لوط في المعصية وكونا بمنزلة امرأة فرعون

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥٤/٢٨

ومريم» . ووضحه في «الكشاف» بأنه من قبيل التعريض. ومنعه الفخر، وقال ابن عطية: «قال بعض الناس في المثلين عبرة لزوجات النبيء صلى الله عليه وسلم حين تقدم عتابهن. وفي هذا بعد لأن النص أنه للكفار يبعد هذا» اه.

ويدفع استبعاده أن دلالة التعريض لا تنافي اللفظ الصريح، ومن **لطائف** التقييد بقوله تعالى: للذين كفروا أن المقصد الأصلي هو ضرب المثل للذين كفروا وذلك من الاحتراس من أن تحمل التمثيل على المشابهة من جميع الوجوه والاحتراس بكثرة

التشبيهات ومنه تجريد الاستعارة.

وقصة امرأة نوح لم تذكر في القرآن في غير هذه الآية والذي يظهر أنها خانت زوجها بعد الطوفان وأن نوحا لم يعلم بخونها لأن الله سمى عملها خيانة.

وقد ورد في سفر التكوين من التوراة ذكر امرأة نوح مع الذين ركبوا السفينة". (١)

٦٧. ٣٦-"الناس بصغار العلم قبل كباره. ووقع هذا التفسير في «صحيح البخاري» . وقد تقدم عند قوله تعالى: ولكن كونوا ربانيين في سورة آل عمران [٧٩] .

والأحبار جمع حبر، وهو العالم في الملة الإسرائيلية، وهو- بفتح الحاء وكسرها-،

لكن اقتصر المتأخرون على الفتح للتفرقة بينه وبين اسم المداد الذي يكتب به. وعطف الربانيون والأحبار على النبيون لأنهم ورثة علمهم وعليهم تلقوا الدين.

والاستحفاظ: الاستئمان، واستحفاظ الكتاب أمانة فهمه حق الفهم بما دلت عليه آياته. استعير الاستحفاظ الذي هو طلب الحفظ لمعنى الأمر بإجادة الفهم والتبليغ للأمة على ما هو عليه.

فالباء في قوله بما استحفظوا للملابسة، أي حكما ملابسا للحق متصلا به غير مبدل ولا مغير ولا مؤول تأويلا لأجل الهوى. ويدخل في الاستحفاظ بالكتاب الأمر بحفظ ألفاظه من التغيير والكتمان.

ومن **لطائف** القاضي إسماعيل بن إسحاق بن حماد ما حكاه عياض في «المدارك» ، عن أبي الحسن بن المنتاب، قال: كنت عند إسماعيل يوما فسئل: لم جاز التبديل على أهل التوراة ولم يجز على أهل القرآن، فقال: لأن الله تعالى قال في أهل التوراة بما استحفظوا من كتاب الله فوكل الحفظ إليهم. وقال في القرآن:

---

(١) التحرير والتنوير ٣٧٤/٢٨

إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون [الحجر: ٩] . فتعهد الله بحفظه فلم يجز التبديل على أهل القرآن.
قال: فذكرت ذلك للمحاملي، فقال: لا أحسن من هذا الكلام.
ومن مبينة لإبهام (ما) في قوله: بما استحفظوا. وكتاب الله هو التوراة، فهو من الإظهار في مقام الإضمار، ليتأتى التعريف بالإضافة المفيدة لتشريف التوراة وتمجيدها بإضافتها إلى اسم الله تعالى.
وضمير وكانوا للنبيئين والربانيين والأحبار، أي وكان المذكورون شهداء على كتاب الله، أي شهداء على حفظه من التبديل، فحرف (على) هنا دال على معنى التمكن وليس هو (على) الذي يتعدى به فعل شهد، إلى المحقوق كما يتعدى". (١)

٦٨. ٣٧-"بحال من يحمل حملا ثقيلا. وذكر على ظهورهم هنا مبالغة في تمثيل الحالة، كقوله تعالى: وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم [الشورى: ٣٠] . فذكر الأيدي لأن الكسب يكون باليد، فهو يشبه تخييل الاستعارة ولكنه لا يتأتى التخييل في التمثيلية لأن ما يذكر فيها صالح لاعتباره من جملة الهيئة، فإن الحمل على الظهر مؤذن بنهاية ثقل المحمول على الحامل.
ومن لطائف التوجيه وضع لفظ الأوزار في هذا التمثيل فإنه مشترك بين الأحمال الثقيلة وبين الذنوب، وهم إنما وقعوا في هذه الشدة من جراء ذنوبهم فكأنهم يحملونها لأنهم يعانون شدة آلامها.
وجملة: ألا ساء ما يزرون تذييل. و (ألا) حرف استفتاح يفيد التنبيه للعناية بالخبر. وساء ما يزرون إنشاء ذم. ويزرون بمعنى يحملون، أي ساء ما يمثل من حالهم بالحمل. وما يزرون فاعل ساء. والمخصوص بالذم محذوف، تقديره:
حملهم.
[٣٢]

[سورة الأنعام (٦) : آية ٣٢]
وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون (٣٢)
لما جرى ذكر الساعة وما يلحق المشركين فيها من الحسرة على ما فرطوا ناسب أن يذكر الناس بأن الحياة الدنيا زائلة وأن عليهم أن يستعدوا للحياة الآخرة. فيحتمل أن يكون جوابا لقول المشركين: إن

---
(١) التحرير والتنوير ٢٠٩/٦

هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين [الأنعام: ٢٩] .
فتكون الواو للحال، أي تقولون إن هي إلا حياتنا الدنيا ولو نظرتم حق النظر لوجدتم الحياة الدنيا لعبا ولهوا وليس فيها شيء باق، فلعلمتم أن وراءها حياة أخرى فيها من الخيرات ما هو أعظم مما في الدنيا وإنما يناله المتقون، أي المؤمنون، فتكون الآية إعادة لدعوتهم إلى الإيمان والتقوى، ويكون الخطاب في قوله: أفلا تعقلون التفاتا من الحديث عنهم بالغيبة إلى خطابهم بالدعوة.". (١)

٦٩. ٣٨-"واستعيرت السرعة لعدم التردد ولتمام المقدرة على العقاب، لأن شأن المتردد أو العاجز أن يتريث وأن يخشى غائلة المعاقب، فالمراد سريع العقاب في يوم العقاب، وليس المراد سريعه من الآن حتى يؤول بمعنى: كل آت قريب، إذ لا موقع له هنا.
ومن لطائف القرآن الاقتصار في وصف (سريع العقاب) على موكد واحد، وتعزيز وصف (الغفور الرحيم) بمؤكدات ثلاثة وهي إن، ولام الابتداء، والتوكيد اللفظي لأن (الرحيم) يؤكد معنى (الغفور) : ليطمئن أهل العمل الصالح إلى مغفرة الله ورحمته، وليستدعي أهل الإعراض والصدوف، إلى الإقلاع عما هم فيه.". (٢)

٧٠. ٣٩-"التي أهلته لسيادة هذا العالم والتغلب على مصاعبه، وليس المراد من التمكين هنا القوة والحكم كالمراد في قوله تعالى: إنا مكنا له في الأرض [الكهف: ٨٤] لأن ذلك ليس حاصلا بجميع البشر إلا على تأويل، وليس المراد بالتمكين أيضا معناه الحقيقي وهو جعل المكان في الأرض لأن قوله: في الأرض يمنع من
ذلك، لأنه لو كان كذلك لقال ولقد مكناكم الأرض، وقد قال تعالى عن عاد: ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه [الأحقاف: ٢٦] أي جعلنا ما أقررناهم عليه أعظم مما أقدرناكم عليه، أي في آثارهم في الأرض أما أصل القرار في الأرض فهو صراط بينهما.
ومعايش جمع معيشة، وهي ما يعيش به الحي من الطعام والشراب، مشتقة من العيش وهو الحياة، وأصل المعيشة اسم مصدر عاش قال تعالى: فإن له معيشة ضنكا [طه: ١٢٤] سمي به الشيء الذي

---

(١) التحرير والتنوير ١٩٢/٧

(٢) التحرير والتنوير ٨-أ/٢١٢

يحصل به العيش، تسمية للشيء باسم سببه على طريقة المجاز الذي غلب حتى صار مساويا للحقيقة. وياء (معايش) أصل في الكلمة لأنها عين الكلمة من المصدر (عيش) فوزن معيشة مفعلة ومعايش مفاعل، فحقها أن ينطق بها في الجمع ياء وأن لا تقلب همزة. لأن استعمال العرب في حرف المد الذي في المفرد أنهم إذا جمعوه جمعا بألف زائدة ردوه إلى أصله واوا أو ياء بعد ألف الجمع، مثل: مفازة ومفاوز، فيما أصله واو من الفوز ومعيبة ومعايب فيما أصله الياء، فإذا كان حرف المد في المفرد غير أصلي فإنهم إذا جمعوه جمعا بألف زائدة قلبوا حرف المد همزة نحو قلادة وقلائد، وعجوز وعجائز، وصحيفة وصحائف، وهذا الاستعمال من **لطائف** التفرقة بين حرف المد الأصلي والمد الزائد واتفق القراء على قراءته بالياء، وروى خارجة بن مصعب، وحميد بن عمير، عن نافع أنه قرأ: معائش بهمز بعد الألف، وهي رواية شاذة عنه لا يعبأ بها، وقرىء في الشاذ: بالهمز، رواه عن الأعرج، وفي «الكشاف» نسبة هذه القراءة إلى ابن عامر وهو سهو من الزمخشري.". (١)

٧١. ٤٠-"تنتابهم متوالية من صحة وخصب ورخاء ورفاهية. وجيء في جانب السيئة بحرف (إن) لأن الغالب أن تدل (إن) على التردد في وقوع الشرط، أو على الشك، ولكون الشيء النادر الحصول غير مجزوم بوقوعه، ومشكوكا فيه، جيء في شرط إصابة السيئة بحرف (إن) لندرة وقوع السيئات أي: المكروهات عليهم، بالنسبة إلى الحسنات، أي: النعم، وفي ذلك تعريض بأن نعم الله كانت متكاثرة لديهم وأنهم كانوا معرضين عن الشكر، وتعريض بأن إصابتهم بالسيئات نادرة وهم يعدون السيئات من جراء موسى ومن آمن معه، فهم في كلتا الحالتين بين كافرين بالنعمة وظالمين لموسى ومن معه، ولهذين الاعتبارين عرفت الحسنة تعريف الجنس المعروف في علم المعاني بالعهد الذهني، أي: جاءتهم الحسنات، لأن هذا الجنس محبوب مألوف كثير الحصول لديهم، ونكرت سيئة لندرة وقوعها عليهم، ولأنها شيء غير مألوف حلوله بهم، أي: وإن تصبهم آية سيئة، كذا في «الكشاف» و «المفتاح» . واعلم أن التفرقة بين تعريف الجنس والتنكير من **لطائف** الاستعمال البلاغي، كما أشرنا إليه في قوله تعالى: الحمد لله في سورة الفاتحة [٢] ، وأما من جهة مفاد اللفظ، فالمعرف بلام الجنس والمنكرة سواء، فلا تظن أن اللام للعهد لحسنة معهودة ووقوع المعرف بلام الجنس والنكرة في سياق الشرط، في هذه الآية يعم كل حسنة وكل سيئة.

---

(١) التحرير والتنوير ٨-ب/٣٤

والحسنة والسيئة هنا مراد بهما الحالة الحسنة والحالة السيئة.

واللام في قوله لنا هذه لام الاستحقاق أي: هذه الحسنة حق لنا، لأنهم بغرورهم يحسبون أنهم أحرياء بالنعم، أي: فلا يرون تلك الحسنة فضلا من الله ونعمة.

ويطيروا أصله يتطيروا، وهو تفعل، مشتق من اسم الطير، كأنهم صاغوه على وزن التفعل لما فيه من تكلف معرفة حظ المرء بدلالة حركات الطير، أو هو مطاوعة سمي بها ما يحصل من الانفعال من إثر طيران الطير. وكان العرب إذا خرجوا في سفر لحاجة، نظروا إلى ما يلاقيهم أول سيرهم من طائر، فكانوا يزعمون أن في مروره علامات يمن وعلامات شؤم، فالذي في طيرانه علامة يمن في اصطلاحهم يسمونه السانح، وهو الذي ينهض فيطير من جهة اليمين للسائر والذي علامته الشؤم هو البارح وهو الذي يمر على اليسار، وإذا وجد السائر طيرا جاثما أثاره لينظر أي جهة يطير، وتسمى تلك الإثارة زجرا، فمن الطير ميمون ومنه مشؤوم". (١)

٧٢. ٤١-"معنى ليحق الحق، لأنه إذا حصل الحق ذهب الباطل كما قال تعالى: بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق [الأنبياء: ١٨] ، ولما كان الباطل ضد الحق لزم من ثبوت أحدهما انتفاء الآخر. ومن **لطائف** عبد الله بن عباس أنه قال لعمر بن أبي ربيعة: كم سنك فقال ابن أبي ربيعة ولدت يوم مات عمر بن الخطاب، فقال ابن عباس: «أي حق رفع وأي باطل وضع» أي في ذلك اليوم، ففائدة قوله: ويبطل الباطل التصريح بأن الله لا يرضى بالباطل، فكان ذكر بعد قوله: ليحق الحق بمنزلة التوكيد لقوله ليحق الحق لأن ثبوت الشيء قد يؤكد بنفي ضده كقوله تعالى: قد ضلوا وما كانوا مهتدين [الأنعام: ١٤٠] .

ويجيء في قوله: ويبطل الباطل من معنى الكلام، ومن جناس الاشتقاق، ما جاء في قوله: أن يحق الحق ثم في مقابلة قوله: ليحق الحق- بقوله- ويبطل الباطل محسن الطباق.

ولو كره المجرمون شرط اتصالي. ولو اتصالية تدل على المبالغة في الأحوال، وهو عطف على يريد الله، أو على ليحق الحق أي يريد ذلك لذلك لا لغيره، ولا يصد مراده ما للمعاندين من قوة بأن يكرهه المجرمون وهم المشركون.

والكراهة هنا كناية عن لوازمها وهي الاستعداد لمقاومة المراد من تلك الإرادة، فإن المشركين، بكثرة

---

(١) التحرير والتنوير ٩/٦٥

عددهم وعددهم، يريدون إحقاق الباطل، وإرادة الله تنفذ بالرغم على كراهة المجرمين، وأما مجرد الكراهة فليس صالحا أن يكون غاية للمبالغة في أحوال نفوذ مراد الله تعالى إحقاق الحق: لأنه إحساس قاصر على صاحبه، ولكنه إذا بعثه على مدافعة الأمر المكروه كانت أسباب المدافعة هي الغاية لنفوذ الأمر المكروه على الكاره.

وتقدم الكلام على لو الاتصالية عند قوله تعالى: ولو افتدى به في سورة آل عمران [٩١] وقوله تعالى: أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا في سورة البقرة [١٧٠] .

[٩]

[سورة الأنفال (٨) : آية ٩]

إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين (٩)

يتعلق ظرف إذ تستغيثون ربكم بفعل يريد الله [الأنفال: ٧] لأن إرادة الله مستمر تعلقها". (١)

.٧٣ ١-"- ٧٥٦ -

شعر وآية الإعجاز وتعلقه بسورة أو آيات وقد أطال في الحديث عن الإعجاز تحت قوله ﴿ولن تفعلوا﴾ .

تاسعا: موقفه من القراءات:

وقد جعل المصنف المقدمة السادسة في القراءات وبين فيها سبب إعراضه عن ذكر كثير من القراءات في أثناء التفسير. وقال رحمه الله:

(تنبيه) أنا أقتصر في هذا التفسير على التعرض لاختلاف القراءات العشر المشهورة خاصة في أشهر روايات الراوين عن أصحابها لأنها متواترة، وإن كانت القراءات السبع قد امتازت على بقية القراءات بالشهرة بين المسلمين في أقطار الإسلام.

وأبني أول التفسير على قراءة نافع برواية عيسى بن مينا المدني الملقب بقالون لأنها القراءة المدنية إماما وراويا ولأنها التي يقرأ بها معظم أهل تونس، ثم أذكر خلاف بقية القراء العشرة خاصة. ولم يلتزم بما

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧٣/٩

قال، بل أطنب إطنابا غريبا في بعض المواضع ومن ذلك قوله:

والصراط: الطريق وهو بالصاد والسين وقد قرئ بهما في المشهورة وكذلك نطقت به بالسين جمهور العرب إلا أهل الحجاز نطقوه بالصاد مبدلة عن السين لقصد التخفيف في الانتقال من السين إلى الراء ثم إلى الطاء قال في **لطائف** الإشارات عن الجعبرى: إنهم يفعلون ذلك في كل سين بعدها غين أو خاء أو قاف أو طاء وإنما قلبوها هنا صادا لتطابق الطاء في الإطباق والاستعلاء والتفخم مع الراء استثقالا للانتقال من سفل إلى علو اهـ. أى بخلاف العكس نحو طست لأن الأول عمل والثاني ترك. وقيس قلبوا السين بين الصاد والزاي وهو إشمام وقرأ به حمزة في رواية خلف عنه. ومن العرب من قلب السين زايا خالصة قال القرطبي: وهي لغة عذرة وكلب وبني القين وهي مرجوحة ولم يقرأ بها، وقد قرأ باللغة الفصحى (بالصاد) جمهور القراء وقرأ بالسين ابن كثير في رواية قنبل، والقراءة بالصاد هي الراجحة لموافقتها". (١)

٧٤. ٢-"وقوله فالويل كل الويل تنفير، لأن من لم يعرف هذين العلمين إذا شرع في تفسير القرآن واستخراج **لطائفه**

أخطأ غالبا، وإن أصاب نادرا كان مخطئا في إقدامه عليه اهـ» .

وقوله تمام مراد الحكيم، أي المقصود هو معرفة جميع مراد الله من قرآنه، وذلك إما ليكثر الطلب واستخراج النكت، فيدأب كل أحد للاطلاع على غاية مراد الله تعالى، وإما أن يكون المراد الذي نصب عليه علامات بلاغية وهو منحصر فيما يقتضيه المقام بحسب التتبع، والكل مظنة عدم التناهي وباعث للناظر على بذل غاية الجهد في معرفته، والناس متفاوتون في هذا الاطلاع على قدر صفاء القرائح ووفرة المعلومات.

وقال أبو الوليد ابن رشد في جواب له عمن قال إنه لا يحتاج إلى لسان العرب ما نصه: «هذا جاهل فلينصرف عن ذلك وليتب منه فإنه لا يصح شيء من أمور الديانة والإسلام إلا بلسان العرب يقول الله تعالى: بلسان عربي مبين [الشعراء: ١٩٥] إلا أن يرى أنه قال ذلك لخبث في دينه فيؤدبه الإمام على قوله ذلك بحسب ما يرى فقد قال عظيما اهـ» .

ومراد السكاكي من تمام مراد الله ما يتحمله الكلام من المعاني الخصوصية، فمن يفسر قوله تعالى:

---

(١) التحرير والتنوير /

إياك نعبد [الفاتحة: ٥] بإنا نعبدك لم يطلع على تمام المراد لأنه أهمل ما يقتضيه تقديم المفعول من القصد.

وقال في آخر فن البيان من «المفتاح» : «لا أعلم في باب التفسير بعد علم الأصول أقرأ على المرء لمراد الله من كلامه من علمي المعاني والبيان، ولا أعون على تعاطي تأويل متشابهاته، ولا أنفع في درك **لطائف** نكته وأسراره، ولا أكشف للقناع عن وجه إعجازه، ولكم آية من آيات القرآن تراها قد ضيمت حقها واستلبت ماءها ورونقها أن وقعت إلى من ليسوا من أهل هذا العلم، فأخذوا بها في مآخذ مردودة، وحملوها على محامل غير مقصودة إلخ» .

وقال الشيخ عبد القاهر في «دلائل الإعجاز» . في آخر فصل المجاز الحكمي: «ومن عادة قوم ممن يتعاطى التفسير بغير علم، أن يتوهموا ألباب الألفاظ الموضوعة على المجاز والتمثيل أنها على ظواهرها (أي على الحقيقة) ، فيفسدوا المعنى بذلك ويبطلوا الغرض ويمنعوا أنفسهم والسامع منهم العلم بموضع البلاغة وبمكان الشرف، وناهيك بهم إذا أخذوا في ذكر الوجوه وجعلوا يكثرون في غير طائل، هنا لك ترى ما شئت من باب جهل قد فتحوه، وزند ضلالة قد قدحوا به» .". [١]

٧٥. ٣-"قلت: حد الإعجاز مطابقة الكلام لجميع مقتضى الحال، وهو لا يقبل التفاوت، ويجوز مع ذلك أن يكون بعض الكلام المعجز مشتملا على **لطائف** وخصوصيات تتعلق بوجوه الحسن كالجناس والمبالغة، أو تتعلق بزيادة الفصاحة، أو بالتفنن مثل: أم تسألهم

خرجا فخراج ربك خير

[المؤمنون: ٧٢] . على أنه يجوز أن تكون إحدى القراءات نشأت عن ترخيص النبيء صلى الله عليه وسلم للقارىء أن يقرأ بالمرادف تيسيرا على الناس كما يشعر به حديث تنازع عمر مع هشام بن حكيم، فتروى تلك القراءة للخلف فيكون تمييز غيرها بسبب أن المتميزة هي البالغة البلاغة وأن الأخرى توسعة ورخصة، ولا يعكر ذلك على كونها أيضا بالغة الطرف الأعلى من البلاغة وهو ما يقرب من حد الإعجاز. وأما الإعجاز فلا يلزم أن يتحقق في كل آية من آي القرآن لأن التحدي إنما وقع بسورة مثل سور القرآن، وأقصر سورة ثلاث آيات فكل مقدار ينتظم من ثلاث آيات من القرآن يجب أن يكون مجموعه معجزا. تنبيه: أنا أقتصر في هذا التفسير على التعرض لاختلاف

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/١

القراءات العشر المشهورة خاصة في أشهر روايات الراوين عن أصحابها لأنها متواترة، وإن كانت القراءات السبع قد امتازت على بقية القراءات بالشهرة بين المسلمين في أقطار الإسلام. وأبني أول التفسير على قراءة نافع برواية عيسى ابن مينا المدني الملقب بقالون لأنها القراءة المدنية إماما وراويا ولأنها التي يقرأ بها معظم أهل تونس. ثم أذكر خلاف بقية القراء العشرة خاصة.
والقراءات التي يقرأ بها اليوم في بلاد الإسلام من هذه القراءات العشر، هي قراءة نافع برواية قالون في بعض القطر التونسي وبعض القطر المصري وفي ليبيا، وبرواية ورش في بعض القطر التونسي وبعض القطر المصري وفي جميع القطر الجزائري وجميع المغرب الأقصى، وما يتبعه من البلاد والسودان. وقراءة عاصم برواية حفص عنه في جميع الشرق من العراق والشام وغالب البلاد المصرية والهند وباكستان وتركيا والأفغان. وبلغني أن قراءة أبي عمرو البصري يقرأ بها في السودان المجاور مصر.". (١)

٧٦. ٤-"فعلوا ولا قدروا، ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كمسيلمة كشف عوراه لجميعهم. ولما سمع الوليد بن المغيرة قوله تعالى: إن الله يأمر بالعدل والإحسان [النحل: ٩٠] الآية قال: والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر وما هو بكلام بشر. وذكر
أبو عبيدة أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ فاصدع بما تؤمر [الحجر: ٩٤] فسجد وقال: سجدت لفصاحته، (وكان موضع التأثير في هذه الجملة هو كلمة اصدع في إبانتها عن الدعوة والجهر بها والشجاعة فيها، وكلمة بما تؤمر في إيجازها وجمعها) (١) . وسمع آخر رجلا يقرأ: فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا [يوسف: ٨٠] فقال: أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام. وكون النبيء صلى الله عليه وسلم تحدى به وأن العرب عجزوا عن معارضته مما علم بالضرورة إجمالا وتصدى أهل علم البلاغة لتفصيله.
قال السكاكي في «المفتاح» : «واعلم أن شأن الإعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها، أو كالملاحة، ومدرك الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلا، وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين (المعاني والبيان) نعم للبلاغة وجوه متلثمة ربما تيسرت إماطة اللثام عنها لتجلى عليك، أما نفس وجه الإعجاز فلا» اه.
قال التفتازاني: «يعني أن كل ما ندركه بعقولنا ففي غالب الأمر نتمكن من التعبير عنه، والإعجاز

(١) التحرير والتنوير ٦٣/١

ليس كذلك لأنا نعلم قطعا من كلام الله أنه بحيث لا تمكن للبشر معارضته والإتيان بمثله ولا يماثله شيء من كلام فصحاء العرب مع أن كلماته كلمات كلامهم، وكذا هيئات تراكيبه، كما أنا نجد كلاما نعلم قطعا أنه مستقيم الوزن دون آخر، وكما أنا ندرك من أحد كون كل عضو منه كما ينبغي وآخر كذلك أو دون ذلك، لكن فيه شيء نسميه الملاحة ولا نعرف أنه ما هو، وليس مدرك الإعجاز عند المصنف سوى الذوق وهو قوة إدراكية لها اختصاص بإدراك **لطائف** الكلام ووجوه محاسنه الخفية، فإن كان حاصلا بالفطرة فذاك وإن أريد اكتسابه فلا طريق إليه سوى الاعتناء بعلمي المعاني والبيان وطول ممارستهما والاشتغال بهما، وإن جمع بين الذوق الفطري وطول خدمة العلمين فلا غاية وراءه، فوجه الإعجاز أمر من جنس البلاغة والفصاحة لا كما ذهب إليه النظام وجمع من المعتزلة أن إعجازه بالصرفة بمعنى أن الله صرف العرب عن معارضته وسلب قدرتهم عليها، ولا كما ذهب إليه جماعة من أن إعجازه بمخالفة أسلوبه لأساليب كلامهم من الأشعار والخطب والرسائل لا سيما في المقاطع

---

(١) ما بين الهلالين كلام للمصنف. [.....]".(١)

٧٧. ٥-"فيها، فذلك أمر يتبع رواية القراء وأخبار السنة الصحيحة فيعود إلى الأدلة السابقة.

وهذا كله بناء على تسليم أن الصحابة لم يكتبوا أسماء السور وكونها مكية أو مدنية في المصحف وأن ذلك من صنع المتأخرين وهو صريح كلام عبد الحكيم في «حاشية البيضاوي» ، وأما إذا ثبت أن بعض السلف كتبوا ذلك كما هو ظاهر كلام المفسرين والأصوليين والقراء كما في «**لطائف** الإشارات» للقسطلاني وهو مقتضى كتابة المتأخرين لذلك لأنهم ما كانوا يجرأون على الزيادة على ما فعله السلف فالاحتجاج حينئذ بالكتابة باطل من أصله ودعوى كون أسماء السور كتبت بلون مخالف لحبر القرآن، يرده أن المشاهد في مصاحف السلف أن حبرها بلون واحد ولم يكن التلوين فاشيا.

وقد احتج بعضهم بما

رواه البخاري عن أنس أنه سئل كيف كانت قراءة النبيء؟

فقال كانت مدا ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد بسم الله ويمد بالرحمن ويمد بالرحيم

، اهـ، ولا حجة في هذا لأن ضمير قرأ وضمير يمد عائدان إلى أنس، وإنما جاء بالبسملة على وجه

---

(١) التحرير والتنوير ١/١٠٧

التمثيل لكيفية القراءة لشهرة البسملة.

وحجة عبد الله بن المبارك وثاني قولي الشافعي ما

رواه مسلم عن أنس قال: «بينا رسول الله بين أظهرنا ذات يوم إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسما فقلنا ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: أنزلت علي سورة آنفا فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر

[الكوثر: ١] السورة، قالوا وللإجماع على أن ما بين الدفتين كلام الله ولإثبات الصحابة إياها في المصاحف مع حرصهم على أن لا يدخلوا في القرآن ما ليس منه ولذلك لم يكتبوا آمين في الفاتحة.

والجواب عن الحديث أنا نمنع أن يكون قرأ البسملة على أنها من السورة بل افتتح بها عند إرادة القراءة لأنها تغني عن الاستعاذة إذا نوى المبسمل تقدير أستعيذ باسم الله وحذف متعلق الفعل، ويتعين حمله على نحو هذا لأن راويه أنسا بن مالك جزم في حديثه الآخر أنه لم يسمع رسول الله بسمل في الصلاة.

فإن أبوا تأويله بما تأولناه لزم اضطراب أنس في روايته اضطرابا يوجب سقوطها.

والحق البين في أمر البسملة في أوائل السور، أنها كتبت للفصل بين السور ليكون

الفصل مناسبا لابتداء المصحف، ولئلا يكون بلفظ من غير القرآن، وقد روى أبو داود". (١)

٧٨. ٦-"التنبه له أن الاسم الظاهر معتبر من قبيل الغائب على كلا الرأيين، ولذلك كان قوله تعالى: إياك نعبد التفاتا على كلا الرأيين لأن ما سبق من أول السورة إلى قوله إياك نعبد تعبير بالاسم الظاهر وهو اسم الجلالة وصفاته.

ولأهل البلاغة عناية بالالتفات لأن فيه تجديد أسلوب التعبير عن المعنى بعينه تحاشيا من تكرر الأسلوب الواحد عدة مرار فيحصل بتجديد الأسلوب تجديد نشاط السامع كي لا يمل من إعادة أسلوب بعينه.

قال السكاكي في «المفتاح» بعد أن ذكر أن العرب يستكثرون من الالتفات: «أفتراهم يحسنون قرى الأشباح فيخالفون بين لون ولون وطعم وطعم ولا يحسنون قرى الأرواح فيخالفون بين أسلوب وأسلوب» . فهذه فائدة مطردة في الالتفات. ثم إن البلغاء لا يقتصرون عليها غالبا بل يراعون للالتفات لطائف ومناسبات ولم يزل أهل النقد والأدب يستخرجون ذلك من مغاصه.

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٣/١

وما هنا التفات بديع فإن الحامد لما حمد الله تعالى ووصفه بعظيم الصفات بلغت به الفكرة منتهاها فتخيل نفسه في حضرة الربوبية فخاطب ربه بالإقبال، كعكس هذا الالتفات في قول محمد بن بشير الخارجي (نسبة إلى بني خارجة قبيلة) :

ذممت ولم تحمد وأدركت حاجة ... تولى سواكم أجرها واصطناعها

أبى لك كسب الحمد رأي مقصر ... ونفس أضاق الله بالخير باعها

إذا هي حثته على الخير مرة ... عصاها وإن همت بشر أطاعها

فخاطبه ابتداء ثم ذكر قصور رأيه وعدم انطباع نفسه على الخير فالتفت من خطابه إلى التعبير عنه بضمير الغيبة فقال: إذا هي حثته فكأنه تخيله قد تضاءل حتى غاب عنه، وبعكس ذلك قوله تعالى: والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي [العنكبوت: ٢٣] لاعتبار تشنيع كفر المتحدث عنهم بأنهم كفروا بآيات صاحب ذلك الاسم الجليل، وبعد تقرر ذلك انتقل إلى أسلوب ضمير المتكلم إذ هو الأصل في التعبير عن الأشياء المضافة إلى ذات المتكلم. ومما يزيد الالتفات وقعا في الآية أنه تخلص من الثناء إلى الدعاء ولا شك أن الدعاء يقتضي الخطاب فكان قوله: إياك نعبد تخلصا يجيء بعده: اهدنا الصراط ونظيره في ذلك قول النابغة في رثاء النعمان الغساني:

أبى غفلتي أني إذا ما ذكرته ... تحرك داء في فؤادي داخل". (١)

٧٩. ٧-"عليه وسلم فإن دعاءه حينئذ يكون من استعمال اللفظ في مجاز معناه ويكون دعاؤه ذلك اقتباسا من الآية وليس عين المراد من الآية لأن المراد منها طلب الحصول بالمزيد مع طلب الدوام بطريقة الالتزام ولا محالة أن المقصود في الآية هو طلب الهداية الكاملة.

والصراط الطريق وهو بالصاد وبالسين وقد قرىء بهما في المشهورة وكذلك نطقت به بالسين جمهور العرب إلا أهل الحجاز نطقوه بالصاد مبدلة عن السين لقصد التخفيف في الانتقال من السين إلى الراء ثم إلى الطاء قال في «لطائف الإشارات» عن الجعبري إنهم يفعلون ذلك في كل سين بعدها غين أو خاء أو قاف أو طاء وإنما قلبوها هنا صادا لتطابق الطاء في الإطباق والاستعلاء والتفخم مع الراء

---

(١) التحرير والتنوير ١٧٩/١

استثقالا للانتقال من سفل إلى علو اهـ.
أي بخلاف العكس نحو طست لأن الأول عمل والثاني ترك. وقيس قلبوا السين بين الصاد والزاي وهو إشمام وقرأ به حمزة في رواية خلف عنه. ومن العرب من قلب السين زايا خالصة قال القرطبي: وهي لغة عذرة وكلب وبني القين وهي مرجوحة ولم يقرأ بها، وقد قرأ باللغة الفصحى (بالصاد) جمهور القراء وقرأ بالسين ابن كثير في رواية قنبل، والقراءة بالصاد هي الراجحة لموافقتها رسم المصحف وكونها اللغة الفصحى.
فإن قيل كيف كتبت في المصحف بالصاد وقرأها بعض القراء بالسين؟ قلت إن الصحابة كتبوها بالصاد تنبيها على الأفصح فيها، لأنهم يكتبون بلغة قريش واعتمدوا على علم العرب فالذين قرأوا بالسين تأولوا أن الصحابة لم يتركوا لغة السين للعلم بها فعادلوا الأفصح بالأصل ولو كتبوها بالسين مع أنها الأصل لتوهم الناس عدم جواز العدول عنه
لأنه الأصل والمرسوم كما كتبوا المصيطر بالصاد مع العلم بأن أصله السين فهذا مما يرجع الخلاف فيه إلى الاختلاف في أداء اللفظ لا في مادة اللفظ لشهرة اختلاف لهجات القبائل في لفظ مع اتحاده عندهم.
والصراط اسم عربي ولم يقل أحد من أهل اللغة أنه معرب ولكن ذكر في «الإتقان» عن النقاش وابن الجوزي أنه الطريق بلغة الروم وذكر أن أبا حاتم ذكر ذلك في كتاب «الزينة» له وبنى على ذلك السيوطي فزاده في «منظومته في المعرب» .
والصراط في هذه الآية مستعار لمعنى الحق الذي يبلغ به مدركه إلى الفوز برضاء الله لأن ذلك الفوز هو الذي جاء الإسلام بطلبه.". (١)

٨٠. ٨-"فكنت كذي رجلين رجل صحيحة ... ورجل رمى فيها الزمان فشلت
والاستكبار التزايد في الكبر لأن السين والتاء فيه للمبالغة لا للطلب كما علمت، ومن **لطائف** اللغة العربية أن مادة الاتصاف بالكبر لم تجيء منها إلا بصيغة الاستفعال أو التفعل إشارة إلى أن صاحب صفة الكبر لا يكون إلا متطلبا الكبر أو متكلفا له وما هو بكبير حقا ويحسن هنا أن نذكر قول أبي العلاء:

---

(١) التحرير والتنوير ١/١٩٠

علوتم فتواضعتم على ثقة ... لما تواضع أقوام على غرر
وحقيقة الكبر قال فيها حجة الإسلام في كتاب «الإحياء» : الكبر خلق في النفس وهو الاسترواح والركون إلى اعتقاد المرء نفسه فوق التكبر عليه، فإن الكبر يستدعي متكبرا عليه ومتكبرا به وبذلك ينفصل الكبر عن العجب فإن العجب لا يستدعي غير المعجب ولا يكفي أن يستعظم المرء نفسه ليكون متكبرا فإنه قد يستعظم نفسه ولكنه يرى غيره أعظم من نفسه أو مماثلا لها فلا يتكبر عليه، ولا يكفي أن يستحقر غيره فإنه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر لم يتكبر ولو رأى غيره مثل نفسه لم يتكبر بل أن يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره، فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل خلق الكبر وهذه العقيدة تنفخ فيه فيحصل في نفسه اعتداد وعزة وفرح وركون إلى ما اعتقد، وعز في نفسه بسبب ذلك فتلك العزة والهزة والركون إلى تلك العقيدة هو خلق الكبر.
وقد كانت هذه الآية ونظائرها مثار اختلاف بين علماء أصول الفقه فيما تقتضيه دلالة الاستثناء من حكم يثبت للمستثنى فقال الجمهور: الاستثناء يقتضي اتصاف المستثنى بنقيض ما حكم به للمستثنى منه فلذلك كثر الاكتفاء بالاستثناء دون أن يتبع بذكر حكم معين للمستثنى سواء كان الكلام مثبتا أو منفيا. ويظهر ذلك جليا في كلمة الشهادة لا إله إلا الله فإنه لولا إفادة الاستثناء أن المستثنى يثبت له نقيض ما حكم به للمستثنى منه لكانت كلمة الشهادة غير مفيدة سوى نفي الإلهية عما عدا الله فتكون إفادتها الوحدانية لله بالالتزام.
وقال أبو حنيفة الاستثناء من كلام منفي يثبت للمستثنى نقيض ما حكم به للمستثنى منه، والاستثناء من كلام مثبت لا يفيد إلا أن المستثنى يثبت له نقيض الحكم لا نقيض المحكوم به، فالمستثنى بمنزلة المسكوت عن وصفه،". (١)

٨١. ٩-"دالا على التقضي شيئا بعد شيء كان أدل على المبالغة لأن شأن الأمر الذي يفعل مدرجا أن يكون أتقن. وقد أطلق الوفاء على تحقيق الوعد والعهد إطلاقا شائعا صيره حقيقة.
والعهد تقدم معناه عند قوله تعالى: الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه [البقرة: ٢٧] في هذه السورة.
والعهد هنا هو الالتزام للغير بمعاملة التزاما لا يفرط فيه المعاهد حتى يفسخاه بينهما واستعير العهد

---

(١) التحرير والتنوير ٤٢٥/١

المضاف إلى ضمير الجلالة لقبول ما يكلفهم به من الدين واستعمل مجازا لقبول التكاليف والدخول في الدين واستعير المضاف إلى ضمير المخاطبين للوعد على ذلك بالثواب في الآخرة والنصر في الدنيا فلك أن تجعل كل عهد مجازا مفردا استعمل العهد الأول في التكاليف واستعمل العهد الثاني في الوعد بالثواب والنصر واستعمل الإيفاء مع كليهما في تحقيق ما التزم به كلا الجانبين مستعارا من ملائم المشبه به إلى ملائم المشبه ليفيد ترشيحا لاستعارته ولك أن تجعل المجموع استعارة تمثيلية بأن شبه الهيئة الحاصلة من قولهم لما أمرهم الله به وأن لا يقصروا في العمل ومن وعد الله إياهم على ذلك بالثواب بهيئة المتعاهدين على التزام كل منهما بعمل للآخر ووفائه بعهده في عدم الإخلال به فاستعير لهذه الهيئة الكلام المشتمل على قوله: وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وهذا أحسن وبه يتبين وجه استعمال لفظ العهد الثاني في قوله تعالى: أوف بعهدكم وتقربه المشاكلة.

وعلى الوجهين فالعهد في الموضعين مضاف للمفعول وهو ما ذهب إليه صاحب «الكشاف» لأن إضافته إلى المفعول متعينة إذا تعلق به الإيفاء إذ لا يوفي أحد إلا بعهد نفسه فإذا أضيف العهد الذي هو مفعول أوفوا إلى غير فاعل الإيفاء تعين أن تكون إضافته للمفعول وبذلك يتم ترشيح المجاز إن كان مفردا كما أشار له المحقق التفتازاني فإن كان مركبا فأخلق به لأن اللفظ الموضوع للهيئة المشبه بها يضاف بقيد الإيفاء إلى مفعوله لا محالة.

ومن **لطائف** القرآن في اختيار لفظ العهد للاستعارة هنا لتكليف الله تعالى إياهم أن

ذلك خطاب لهم باللفظ المعروف عندهم في كتبهم فإن التوراة المنزلة على موسى عليه السلام تلقب عندهم بالعهد لأنها وصايات الله تعالى لهم ولذا عبر عنه في مواضع من القرآن بالميثاق وهذا من طرق الإعجاز العلمي الذي لا يعرفه إلا علماؤهم وهم أشح به منهم في كل شيء بحيث لا يعرف ذلك إلا خاصة أهل الدين فمجيئه على لسان النبيء العربي الأمي دليل على أنه وحي من العلام بالغيوب. والعهد قد أخذ على أسلافهم بواسطة رسلهم وأنبيائهم قال تعالى:". (١)

٨٢. ١٠-"وأولئك هم المعتدون.

عطف على جملة: لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة لمناسبة أن إثبات الاعتداء العظيم لهم، نشأ عن الحقد، الشيء الذي أضمروه للمؤمنين، لا لشيء إلا لأنهم مؤمنون كقوله تعالى: وما نقموا منهم إلا

(١) التحرير والتنوير ١/٤٥٣

أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد [البروج: ٨] .
والقصر إما أن يكون للمبالغة في اعتدائهم، لأنه اعتداء عظيم باطني على قوم حالفوهم وعاهدوهم، ولم يلحقوا بهم ضر مع تمكنهم منه، وإما أن يكون قصر قلب، أي: هم المعتدون لا أنتم لأنهم بدأوكم بنقض العهد في قضية خزاعة وبني الديل من بكر بن وائل مما كان سببا في غزوة الفتح.
[١١]

[سورة التوبة (٩) : آية ١١]
فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون (١١)
فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين.
تفريع حكم على حكم لتعقيب الشدة باللين إن هم أقلعوا عن عداوة المسلمين بأن دخلوا في الإسلام لقصد محو أثر الحنق عليهم إذا هم أسلموا أعقب به جملة: إنهم ساء ما كانوا يعملون- إلى قوله- المعتدون [التوبة: ٩، ١٠] تنبيها لهم على أن تداركهم أمرهم هين عليهم، وفرع على التوبة أنهم يصيرون إخوانا للمؤمنين. ولما كان المقام هنا لذكر عداوتهم مع المؤمنين جعلت توبتهم سببا للأخوة مع المؤمنين، بخلاف مقام قوله قبله فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم [التوبة: ٥] حيث إن المعقب بالتوبة هنالك هو الأمر بقتالهم والترصد لهم، فناسب أن يفرع على توبتهم عدم التعرض لهم بسوء. وقد حصل من مجموع الآيتين أن توبتهم توجب أمنهم وأخوتهم.
ومن **لطائف** الآيتين أن جعلت الأخوة مذكورة ثانيا لأنها أخص الفائدتين من توبتهم، فكانت هذه الآية مؤكدة لأختها في أصل الحكم.
وقوله: فإخوانكم خبر لمحذوف أي: فهم إخوانكم. وصيغ هذا الخبر بالجملة الاسمية: للدلالة على أن إيمانهم يقتضي ثبات الأخوة ودوامها، تنبيها على أنهم يعودون كالمؤمنين السابقين من قبل في أصل الأخوة الدينية.". (١)

٨٣. ١١-"ولما كان شأن المؤمنين الرغبة في الجهاد كان المذكور مع استئذان المؤمنين، في الآية أن يجاهدوا دون أن لا يجاهدوا، إذ لا يليق بالمؤمنين الاستئذان في ترك الجهاد، فإذا انتفى أن يستأذنوا في

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٧/١٠

أن يجاهدوا ثبت أنهم يجاهدون دون استئذان، وهذا من **لطائف** بلاغة هذه الآية التي لم يعرج عليها المفسرون وتكلفوا في إقامة نظم الآية.

وجملة والله عليم بالمتقين معترضة لفائدة التنبيه على أن الله مطلع على أسرار المؤمنين إذ هم المراد بالمتقين كما تقدم في قوله في سورة البقرة [٢، ٣] هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب.

[٤٥]

[سورة التوبة (٩) : آية ٤٥]

إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون (٤٥)

الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا نشأ عن تبرئة المؤمنين من أن يستأذنوا في الجهاد:

ببيان الذين شأنهم الاستئذان في هذا الشأن، وأنهم الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر في باطن أمرهم لأن انتفاء إيمانهم ينفي رجاءهم في ثواب الجهاد، فلذلك لا يعرضون أنفسهم له.

وأفادت إنما القصر. ولما كان القصر يفيد مفاد خبرين بإثبات شيء ونفي ضده كانت صيغة القصر هنا دالة باعتبار أحد مفاديها على تأكيد جملة لا يستأذنك الذين

يؤمنون بالله واليوم الآخر

[التوبة: ٤٤] وقد كانت مغنية عن الجملة المؤكدة لولا أن المراد من تقديم تلك الجملة التنويه بفضيلة المؤمنين، فالكلام إطناب لقصد التنويه، والتنويه من مقامات الإطناب.

وحذف متعلق يستأذنك هنا لظهوره مما قبله مما يؤذن به فعل الاستئذان في قوله: لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا [التوبة: ٤٤] والتقدير:

إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون في أن لا يجاهدوا، ولذلك حذف متعلق يستأذنك هنا.". [١]

٨٤. ١٢-"والأذن الجارحة التي بها حاسة السمع. ومعنى هو أذن الإخبار عنه بأنه آلة سمع.

والإخبار ب هو أذن من صيغ التشبيه البليغ، أي كالأذن في تلقي المسموعات لا يرد منها شيئا، وهو كناية عن تصديقه بكل ما يسمع من دون تمييز بين المقبول والمردود.

روي أن قائل هذا هو نبتل بن الحارث أحد المنافقين.

---

(١) التحرير والتنوير ١٠/٢١٢

وجملة: قل أذن خير لكم جملة قل مستأنفة استينافا ابتدائيا، على طريقة المقاولة والمحاورة، لإبطال قولهم بقلب مقصدهم إغاظة لهم، وكمدا لمقاصدهم، وهو من الأسلوب الحكيم الذي يحمل فيه المخاطب كلام المتكلم على غير ما يريده، تنبيها له على أنه الأولى بأن يراد، وقد مضى عند قوله تعالى: يسئلونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج [البقرة: ١٨٩] ومنه ما جرى بين الحجاج والقبعثري إذ قال له الحجاج متوعدا إياه «لأحملنك على الأدهم (أراد لألزمنك القيد لا تفارقه) فقال القبعثرى: «مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب» فصرف مراده إلى أنه أراد بالحمل معنى الركوب وإلى إرادة الفرس الذي هو أدهم اللون من كلمة الأدهم. وهذا من غيرة الله على رسوله عليه الصلاة والسلام، ولذلك لم يعقبه بالرد والزجر، كما أعقب ما قبله من قوله:

ومنهم من يقول ائذن لي [التوبة: ٤٩] . إلى هنا بل أعقبه ببيان بطلانه فأمر النبيء صلى الله عليه وسلم بأن يبلغهم ما هو إبطال لزعمهم من أصله بصرف مقالتهم إلى معنى لائق بالرسول، حتى لا يبقى للمحكي أثر، وهذا من **لطائف** القرآن.

ومعنى أذن خير أنه يسمع ما يبلغه عنكم ولا يؤاخذكم ويسمع معاذيركم ويقبلها منكم، فقبوله ما يسمعه ينفعكم ولا يضركم فهذا أذن في الخبر، أي في سماعه والمعاملة به وليس أذنا في الشر.

وهذا الكلام إبطال لأن يكون أذن بالمعنى الذي أرادوه من الذم فإن الوصف بالأذن لا يختص بمن يقبل الكلام المفضي إلى شر بل هو أعم، فلذلك صح تخصيصه هنا بما فيه خير. وهذا إعمال في غير المراد منه. وهو ضرب من المجاز المرسل بعلاقة الإطلاق والتقييد في أحد الجانبين، فلا يشكل عليك بأن وصف أذن إذا كان مقصودا به الذم كيف يضاف إلى الخير، لأن محل الذم في هذا الوصف هو قبول كل ما يسمع". (١)

٨٥. ١٣-"تقطع ولا تعطف لأن التوبيخ يقتضي التعداد، فتقع الجمل الموبخ بها موقع الأعداد المحسوبة نحو واحد، اثنان، فالمعنى لا حاجة بكم للاعتذار عن التناجي فإنكم قد عرفتم بما هو أعظم وأشنع.

والنهي مستعمل في التسوية وعدم الجدوى.

وجملة: قد كفرتم بعد إيمانكم في موضع العلة من جملة: لا تعتذروا تعليلا للنهي المستعمل في التسوية

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤٢/١٠

وعدم الجدوى.

وقوله: قد كفرتم يدل على وقوع الكفر في الماضي، أي قبل الاستهزاء، وذلك أنه قد عرف كفرهم من قبل. والمراد بإسناد الإيمان إليهم: إظهار الإيمان، وإلا فهم لم يؤمنوا إيمانا صادقا. والمراد بإيمانهم: إظهارهم الإيمان، لا وقوع حقيقته. وقد أنبأ عن ذلك إضافة الإيمان إلى ضميرهم دون تعريف الإيمان باللام المفيدة للحقيقة، أي بعد إيمان هو من شأنكم، وهذا تعريض بأنه الإيمان الصوري غير الحق ونظيره قوله تعالى

الآتي وكفروا بعد إسلامهم [التوبة: ٧٤] وهذا من لطائف القرآن.

إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين.

جاءت هذه الجملة على عادة القرآن في تعقيب النذارة بالتبشير للراغب في التوبة تذكيرا له بإمكان تدارك حاله.

ولما كان حال المنافقين عجيبا كانت البشارة لهم مخلوطة ببقية النذارة، فأنبأهم أن طائفة منهم قد يعفى عنها إذا طلبت سبب العفو: بإخلاص الإيمان، وأن طائفة تبقى في حالة العذاب، والمقام دال على أن ذلك لا يكون عبثا ولا ترجيحا بدون مرجح، فما هو إلا أن طائفة مرجوة الإيمان، فيغفر عما قدمته من النفاق، وأخرى تصر على النفاق حتى الموت، فتصير إلى العذاب. والآيات الواردة بعد هذه تزيد ما دل عليه المقام وضوحا من قوله: نسوا الله فنسيهم- إلى قوله- عذاب مقيم [التوبة: ٦٧، ٦٨] . وقوله". (١)

٨٦. ١٤-"[سورة التوبة (٩) : آية ٩٠]

وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم (٩٠)

عطفت جملة: وجاء المعذرون على جملة استأذنك أولوا الطول منهم [التوبة: ٨٦] ، وما بينهما اعتراض، فالمراد بالمعذرين فريق من المؤمنين الصادقين من الأعراب، كما تدل عليه المقابلة بقوله: وقعد الذين كذبوا الله ورسوله. وعلى هذا المعنى فسر ابن عباس، ومجاهد، وكثير. وجعلوا من هؤلاء غفارا، وخالفهم قتادة فجعلهم المعتذرين كذبا، وهم بنو عامر رهط عامر بن الطفيل، قالوا

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥٢/١٠

للنبيء صلى الله عليه وسلم إن خرجنا معك أغارت أعراب طيء على بيوتنا. ومن المعذرين الكاذبين أسد، وغطفان.

وعلى الوجهين في التفسير يختلف التقدير في قوله: المعذرون فإن كانوا المحقين في العذر فتقدير المعذرون أن أصله المعتذرون، من اعتذر أدغمت التاء في الذال لتقارب المخرجين لقصد التخفيف، كما أدغمت التاء في الصاد في قوله: وهم يخصمون [يس: ٤٩] ، أي يختصمون.

وإن كانوا الكاذبين في عذرهم فتقدير المعذرون: أنه اسم فاعل من عذر بمعنى تكلف العذر فعن ابن عباس: لعن الله المعذرين. قال الأزهري: ذهب إلى أنهم الذين يعتذرون بلا عذر فكأن الأمر عنده أن المعذر بالتشديد هو المظهر للعذر اعتلالا وهو لا عذر له اه. وقال شارح «ديوان النابغة» عند قول النابغة:

ودع أمامة والتوديع تعذير أي لا يجد عذرا غير التوديع.

ويجوز أن يكون اختيار صيغة المعذرين من **لطائف** القرآن لتشمل الذين صدقوا في العذر والذين كذبوا فيه.

والاعتذار افتعال من باب ما استعمل فيه مادة الافتعال للتكلف في الفعل والتصرف مثل الاكتساب والاختلاق. وليس لهذا المزيد فعل مجرد بمعناه وإنما المجرد هو عذر". (١)

٨٧. ١٥-"ولما قابل السكون في جانب الليل بالإبصار في جانب النهار، والليل والنهار ضدان دل ذلك على أن علة السكون عدم الإبصار، وأن الإبصار يقتضي الحركة فكان في الكلام احتباك.

ووصف النهار بمبصر مجاز عقلي للمبالغة في حصول الإبصار فيه حتى جعل النهار هو المبصر. والمراد: مبصرا فيه الناس.

ومن **لطائف** المناسبة أن النور الذي هو كيفية زمن النهار، شيء وجودي، فكان زمانه حقيقا بأن يوصف بأوصاف العقلاء، بخلاف الليل فإن ظلمته عدمية فاقتصر في العبرة به على ذكر الفائدة الحاصلة فيه وهي أن يسكنوا فيه.

وفي قوله: هو الذي جعل لكم الليل طريق من طرق القصر وهو تعريف المسند والمسند إليه. وهو هنا قصر حقيقي وليس إضافيا كما توهمه بعض الكاتبين إذ جعله قصر تعيين، وهم معترفون به لا

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩٢/١٠

يستطيعون دفع هذا الاستدلال، فالمقصود الاستدلال على انفراده تعالى بخصائص الإلهية التي منها الخلق والتقدير، وأن آلهتهم انتفت عنها خصائص الإلهية، وقد حصل مع الاستدلال امتنان على الناس بجعل الليل والنهار على هذا النظام.

وهذا الامتنان مستفاد من قوله: جعل لكم ومن تعليل خلق الليل بعلة سكون الناس فيه، وخلق النهار بعلة إبصار الناس، وكل الناس يعلمون ما في سكون الليل من نعمة وما في إبصارهم بالنهار من نعمة كذلك، فإن في العمل بالنهار نعما جمة من تحصيل رغبات، ومشاهدة محبوبات، وتحصيل أموال وأقوات، وأن في السكون بالليل نعما جمة من

استجمام القوى المنهوكة والإخلاد إلى محادثة الأهل والأولاد، على أن في اختلاف الأحوال، ما يدفع عن المرء الملال.

وفي إدماج الاستدلال بالامتنان تعريض بأن الذين جعلوا لله شركاء جمعوا وصمتين هما: وصمة مخالفة الحق، ووصمة كفران النعمة.

وجملة: إن في ذلك لآيات مستأنفة. والآيات: الدلائل الدالة على وحدانية الله تعالى بالإلهية، فإن النظام الذي نشأ عنه الليل والنهار مشتمل على دقائق كثيرة من العلم والحكمة والقدرة وإتقان الصنع.". (١)

٨٨. ١٦-"ووصف اليوم بالعاصف مجاز عقلي، أي عاصف ريحه، كما يقال: يوم ماطر، أي سحابه.

والرماد: ما يبقى من احتراق الحطب والفحم. والعاصف تقدم في قوله: جاءتها ريح عاصف في سورة يونس [٢٢] .

ومن **لطائف** هذا التمثيل أن اختير له التشبيه بهيئة الرماد المتجمع، لأن الرماد أثر لأفضل أعمال الذين كفروا وأشيعها بينهم وهو قرى الضيف حتى صارت كثرة الرماد كناية في لسانهم عن الكرم.

وقرأ نافع وأبو جعفر اشتدت به الرياح. وقرأه البقية اشتدت به الريح بالإفراد، وهما سواء لأن التعريف تعريف الجنس.

وجملة لا يقدرون مما كسبوا على شيء بيان لجملة التشبيه، أي ذهبت أعمالهم سدى فلا يقدرون أن

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٧/١١

ينتفعوا بشيء منها.

وجملة ذلك هو الضلال البعيد تذييل جامع لخلاصة حالهم، وهي أنها ضلال بعيد.

والمراد بالبعيد البالغ نهاية ما تنتهي إليه ماهيته، أي بعيد في مسافات الضلال، فهو كقولك: أقصى الضلال أو جد ضلال، وقد تقدم في قوله تعالى: ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا في سورة النساء [١١٦] .

[١٩، ٢٠]

[سورة إبراهيم (١٤) : الآيات ١٩ إلى ٢٠]

ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد (١٩) وما ذلك على الله بعزيز (٢٠)

استئناف بياني ناشيء عن جملة فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين فإن هلاك فئة كاملة شديدة القوة والمرة أمر عجيب يثير في النفوس السؤال:". (١)

٨٩. ١٧-"وتعريف المسند إليه الذي هو اسم إن بطريق الإضافة دون العلمية لما يومىء إليه إضافة لفظ (رب) إلى ضمير النبيء من كون المغفرة والرحمة لأصحابه كانت لأنهم أوذوا لأجل الله ولأجل النبيء صلى الله عليه وسلم فكان إسناد المغفرة إلى الله بعنوان كونه رب محمد صلى الله عليه وسلم حاصلا بأسلوب يدل على الذات العلية وعلى الذات المحمدية.

وهذا من أدق لطائف القرآن في قرن اسم النبيء باسم الله بمناسبة هذا الإسناد بخصوصه.

وضمير من بعدها عائد إلى الهجرة المستفادة من هاجروا، أو إلى المذكورات: من هجرة وفتنة وجهاد وصبر، أو إلى الفتنة المأخوذة من فتنوا. وكل تلك الاحتمالات تشير إلى أن المغفرة والرحمة لهم جزاء على بعض تلك الأفعال أو كلها.

وقرأ ابن عامر فتنوا- بفتح الفاء والتاء- على البناء للفاعل، وهي لغة في افتتن، بمعنى وقع في الفتنة.

[١١١]

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/٢١٣

[سورة النحل (١٦) : آية ١١١]

يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون (١١١)

يجوز أن يكون هذا استئنافا وتذييلا بتقدير: اذكر يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها، وقع عقب التحذير والوعيد وعيدا للذين أنذروا ووعدا للذين بشروا.

ويجوز أن يكون متصلا بقوله: إن ربك من بعدها لغفور رحيم [سورة النحل: ١١٠] ، فيكون انتصاب يوم تأتي كل نفس على الظرفية لغفور رحيم، أي يغفر لهم ويرحمهم يوم القيامة بحيث لا يجدون أثرا لذنوبهم التي لا يخلو". [١]

٩٠. ١٨-"ومن قبيلها استعارة (البلى) لزوال صفة الشخص تشبيها للزوال بعد التمكن ببلى الثوب بعد جدته في قول أبي الغول الطهوي:

ولا تبلى بسالتهم وإن هم ... صلوا بالحرب حينا بعد حين

واستعارة سل الثياب إلى زوال المعاشرة في قول امرئ القيس:

فسلي ثيابي عن ثيابك تنسل ومن لطائف البلاغة جعل اللباس لباس شيئين، لأن تمام اللبسة أن يلبس المرء إزارا ودرعا.

ولما كان اللباس مستعارا لإحاطة ما غشيهم من الجوع والخوف وملازمته أريد إفادة أن ذلك متمكن منهم ومستقر في إدراكهم استقرار الطعام في البطن إذ يذاق في اللسان والحلق ويحس في الجوف والأمعاء.

فاستعير له فعل الإذاقة تمليحا وجمعا بين الطعام واللباس، لأن غاية القرى والإكرام أن يؤدب للضيف ويخلع عليه خلعة من إزار وبرد، فكانت استعارتان تكميتان.

فحصل في الآية استعارتان: الأولى: استعارة الإذاقة وهي تبعية مصرحة، والثانية: اللباس وهي أصلية مصرحة.

ومن بديع النظم أن جعلت الثانية متفرعة على الأولى ومركبة عليها بجعل لفظها مفعولا للفظ الأولى. وحصل بذلك أن الجوع والخوف محيطان بأهل القرية في سائر

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠١/١٤

أحوالهم وملازمان لهم وأنهم بالغان منهم مبلغا أليما.

وأجمل بما كانوا يصنعون اعتمادا على سبق ما يبينه من قوله: فكفرت بأنعام الله.". (١)

٩١. ١٩-"وذكر المفعول المطلق بقوله: تفجيرا للدلالة على التكثير لأن تفجر قد كفى في الدلالة على المبالغة في الفجر، فتعين أن يكون الإتيان بمفعوله المطلق للمبالغة في العدد، كقوله تعالى: ونزلناه تنزيلا [الإسراء: ١٠٦] ، وهو المناسب لقوله:

خلالها، لأن الجنة تتخللها شعب النهر لسقي الأشجار. فجمع الأنهار باعتبار تشعب ماء النهر إلى شعب عديدة. ويدل لهذا المعنى إجماع القراء على قراءة فتفجر هنا بالتشديد مع اختلافهم في الذي قبله. وهذا من **لطائف** معاني القراءات المروية عن النبيء صلى الله عليه وسلم فهي من أفانين إعجاز القرآن.

وقولهم: أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا انتقال من تحديه بخوارق فيها منافع لهم إلى تحديه بخوارق فيها مضرتهم، يريدون بذلك التوسيع عليه، أي فليأتهم بآية على ذلك ولو في مضرتهم. وهذا حكاية لقولهم كما قالوا. ولعلهم أرادوا به الإغراق في التعجيب من ذلك فجمعوا بين جعل الإسقاط لنفس السماء. وعززوا تعجيبهم بالجملة المعترضة وهي كما زعمت إنباء بأن ذلك لا يصدق به أحد. وعنوا به قوله تعالى:

إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء [سبأ: ٩] وبقوله:

وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم [الطور: ٤٤] ، إذ هو تهديد لهم بأشراط الساعة وإشرافهم على الحساب. وجعلوا (من) في قوله تعالى: كسفا من السماء [الطور: ٤٤] تبعيضية، أي قطعة من الأجرام السماوية، فلذلك أبوا تعدية فعل تسقط إلى ذات السماء. واعلم أن هذا يقتضي أن تكون هاتان الآيتان أو إحداها نزلت قبل سورة الإسراء وليس ذلك بمستبعد.

و «الكسف» - بكسر الكاف وفتح السين- جمع كسفة، وهي القطعة من الشيء مثل سدرة وسدر. وكذلك قرأه نافع، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم، وأبو جعفر. وقرأه الباقون- بسكون السين-

(١) التحرير والتنوير ١٤/٣٠٧

بمعنى المفعول، أي المكسوف بمعنى المقطوع.". (١)

٩٢. ٢٠-"عنه، فكان الإيجاز يقتضي أن يقول: عصاي. فلما قال: هي عصاي كان الأسلوب أسلوب كلام من يتعجب من الاحتياج إلى الإخبار، كما يقول سائل لما رأى رجلا يعرفه وآخر لا يعرفه: من هذا معك؟ فيقول: فلان، فإذا لقيهما مرة أخرى وسأله: من هذا معك؟ أجابه: هو فلان، ولذلك عقب موسى جوابه ببيان الغرض من اتخاذها لعله أن يكون هو قصد السائل فقال: أتوكؤا عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى. ففصل ثم أجمل لينظر مقدار اقتناع السائل حتى إذا استزاده بيانا زاده.

والباء في قوله بيمينك للظرفية أو الملابسة.

والتوكؤ: الاعتماد على شيء من المتاع، والاتكاء كذلك، فلا يقال: توكأ على الحائط ولكن يقال: توكأ على وسادة، وتوكأ على عصا.

والهش: الخبط، وهو ضرب الشجرة بعصا ليتساقط ورقها، وأصله متعد إلى الشجرة فلذلك ضمت عينه في المضارع، ثم كثر حذف مفعوله وعدي إلى ما لأجله يوقع الهش بعلى لتضمين (أهش) معنى أسقط على غنمي الورق فتأكله، أو استعملت (على) بمعنى الاستعلاء المجازي كقولهم: هو وكيل على فلان.

ومآرب: جمع مأربة، مثلث الراء: الحاجة، أي أمور أحتاج إليها. وفي العصا منافع كثيرة روي بعضها عن ابن عباس، وقد أفرد الجاحظ من كتاب «البيان والتبيين» بابا لمنافع العصا. ومن أمثال العرب: «هو خير من تفارق العصا» . ومن **لطائف** معنى الآية ما أشار إليه بعض الأدباء من أن موسى أطنب في جوابه بزيادة على ما في السؤال لأن المقام مقام تشريف ينبغي فيه طول الحديث.

والظاهر أن قوله مآرب أخرى حكاية لقول موسى بمماثله، فيكون إيجازا بعد الإطناب، وكان يستطيع أن يزيد من ذكر فوائد". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠٩/١٥

(٢) التحرير والتنوير ٢٠٦/١٦

٩٣. ٢١-"الله تعالى بدون وساطة التطورات الحيوانية للتكوين النسلي.

وجعلها وابنها آية هو من أسباب تشريفهما والتنويه بهما إذ جعلهما الله وسيلة لليقين بقدرته ومعجزات أنبيائه كما قال في [سورة المؤمنين: ٥٠] وجعلنا ابن مريم وأمه آية. وبهذا الاعتبار حصل تشريف بعض المخلوقات فأقسم الله بها نحو: والليل إذا يغشى [الليل:
١] ، والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها [الشمس: ١- ٢] .

وإفراد الآية لأنه أريد بها الجنس. وحيث كان المذكور ذاتين فأخبر عنهما بأنهما آية علم أن كل واحد آية خاصة. ومن لطائف هذا الإفراد أن بين مريم وابنها حالة مشتركة هي آية واحدة، ثم في كل منهما آية أخرى مستقلة باختلاف حال الناظر المتأمل.

[٩٢]

[سورة الأنبياء (٢١) : آية ٩٢]

إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون (٩٢)

إن مكسورة الهمزة عند جميع القراء، فهي ابتداء كلام. واتفقت القراءات المشهورة على رفع أمتكم.
والأظهر أن الجملة محكية بقول محذوف يدل عليه السياق. وحذف القول في مثله شائع في القرآن.
والخطاب للأنبياء المذكورين في الآيات السابقة. والوجه حينئذ أن يكون القول المحذوف مصوغا في صيغة اسم الفاعل منصوبا على الحال. والتقدير: قائلين لهم إن هذه أمتكم إلى آخره. والمقول محكي بالمعنى، أي قائلين لكل واحد من رسلنا وأنبيائنا المذكورين ما تضمنته جملة إن هذه أمتكم.
فصيغة الجمع مراد بها التوزيع، وهي طريقة شائعة في الإخبار عن الجماعات. ومنه قولهم: ركب القوم دوابهم، فتكون هذه الآية جارية على أسلوب نظيرها في سورة المؤمنين. وفيه ما يزيد هذه توضيحا فإنه ورد هنالك ذكر عدة من الأنبياء تفصيلا وإجمالا، كما ذكروا في هذه السورة. ثم عقب بقوله تعالى: يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم [المؤمنون: ٥١] وأن- بفتح الهمزة". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ١٣٩/١٧

٩٤. ٢٢-"وأفيد مضمون الجملة الذي هو حصول الصلوات والرحمة والهدى للصابرين بطريقة التبشير على لسان الرسول تكريما لشأنه، وزيادة في تعلق المؤمنين به بحيث تحصل خيراتهم بواسطته، فلذلك كان من لطائف القرآن إسناد البلوى إلى الله بدون واسطة الرسول، وإسناد البشارة بالخير الآتي من قبل الله إلى الرسول.

والكلام على الصبر وفضائله تقدم في قوله تعالى: واستعينوا بالصبر والصلاة [البقرة: ٤٥] .

ووصف الصابرين بأنهم: الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إلخ لإفادة أن صبرهم أكمل الصبر إذ هو صبر مقترن ببصيرة في أمر الله تعالى إذ يعلمون عند المصيبة أنهم ملك لله تعالى يتصرف فيهم كيف يشاء فلا يجزعون مما يأتيهم، ويعلمون أنهم صائرون إليه فيثيبهم على ذلك، فالمراد من القول هنا القول المطابق للاعتقاد إذ الكلام إنما وضع للصدق، وإنما يكون ذلك القول معتبرا إذا كان تعبيرا عما في الضمير فليس لمن قال هاته الكلمات بدون اعتقاد لها فضل وإنما هو كالذي ينعق بما لا يسمع، وقد علمهم الله هذه الكلمة الجامعة لتكون شعارهم عند المصيبة، لأن الاعتقاد يقوى بالتصريح لأن استحضار النفس للمدركات المعنوية ضعيف يحتاج إلى التقوية بشيء من الحس، ولأن في تصريحهم بذلك إعلانا لهذا الاعتقاد وتعليما له للناس. والمصيبة يأتي الكلام عليها عند قوله تعالى:

فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علي [النساء: ٧٢] في سورة النساء.

والتوكيد بإن في قولهم: إنا لله لأن المقام مقام اهتمام، ولأنه ينزل المصاب فيه منزلة المنكر كونه ملكا لله تعالى وعبدا له إذ تنسيه المصيبة ذلك ويحول هولها بينه وبين رشده، واللام فيه للملك.

والإتيان باسم الإشارة في قوله: أولئك عليهم صلوات من ربهم للتنبيه على أن المشار إليه هو ذلك الموصوف بجميع الصفات السابقة على اسم الإشارة، وأن الحكم الذي يرد بعد اسم الإشارة مترتب على تلك الأوصاف مثل: أولئك على هدى من ربهم [البقرة: ٥] وهذا بيان لجزاء صبرهم.

والصلوات هنا مجاز في التزكيات والمغفرات ولذلك عطفت عليها الرحمة التي هي

من معاني الصلاة مجازا في مثل قوله تعالى: إن الله وملائكته يصلون على النبي [الأحزاب: ٥٦] .

وحقيقة الصلاة في كلام العرب أنها أقوال تنبئ عن محبة الخير لأحد، ولذلك كان". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٥٧

٩٥. ٢٣-"وفي البخاري عن كعب بن عجرة قال: «حملت إلى النبيء والقمل يتناثر على وجهي، فقال ما كنت أرى الجهد قد بلغ بك هذا، أما تجد شاة؟ قلت: لا، قال: صم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام واحلق رأسك، فنزلت هذه الآية

في خاصة وهي لكم عامة اهـ» ومن **لطائف** القرآن ترك التصريح بما هو مرذول من الألفاظ.

وقوله: ففدية من صيام محذوف المسند إليه لظهوره أي عليه، والمعنى فليحلق رأسه وعليه فدية، وقرينة المحذوف قوله: ولا تحلقوا رؤسكم وقد أجمل الله الفدية ومقدارها وبينه حديث كعب بن عجرة.

والنسك بضمتين وبسكون السين مع تثليث النون العبادة ويطلق على الذبيحة المقصود منها التعبد وهو المراد هنا مشتق من نسك كنصر وكرم إذا عبد وذبح لله وسمي العابد ناسكا، وأغلب إطلاقه على الذبيحة المتقرب بها إلى معبود

وفي الحديث: «والآخر يوم تأكلون فيه من نسككم»

يعني الضحية.

فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام.

الفاء للعطف على أحصرتم إن كان المراد من الأمن زوال الإحصار المتقدم، ولعلها نزلت بعد أن فرض الحج، لأن فيها ذكر التمتع وذكر صيام المتمتع إن لم يجد هديا ثلاثة أيام في مدة الحج وسبعة إذا رجع إلى أفقه وذلك لا يكون إلا بعد تمكنهم من فعل الحج. والفاء لمجرد التعقيب الذكري.

وجيء بإذا لأن فعل الشرط مرغوب فيه، والأمن ضد الخوف، وهو أيضا السلامة من كل ما يخاف منه أمن كفرح أمنا، أمانا، وأمنا، وأمنة وإمنا بكسر الهمزة وهو قاصر بالنسبة إلى المأمون منه فيتعدى بمن تقول: أمنت من العدو، ويتعدى إلى المأمون تقول: أمنت فلانا إذا جعلته آمنا منك، والأظهر أن الأمن ضد الخوف من العدو ما لم يصرح بمتعلقه وفي القرآن ثم أبلغه مأمنه [التوبة: ٦] فإن لم يذكر له متعلق نزل منزلة اللازم فدل على عدم الخوف من القتال وقد تقدم في قوله تعالى: رب اجعل هذا بلدا آمنا [البقرة: ١٢٦] ." (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٢٢٥

٩٦. ٢٤-"في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن [النساء: ١٢٧] وقال: فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن [البقرة: ٢٣٢] فحدد الله لمعاملات النساء حدودا، وشرع لهن أحكاما، قد أعلنتها على الإجمال هذه الآية العظيمة، ثم فصلتها الشريعة تفصيلا، ومن **لطائف** القرآن في التنبيه إلى هذا عطف المؤمنات على المؤمنين عند ذكر كثير من الأحكام أو الفضائل، وعطف النساء على الرجال.

وقوله: بالمعروف الباء للملابسة، والمراد به ما تعرفه العقول السالمة، المجردة من الانحياز إلى الأهواء، أو العادات أو التعاليم الضالة، وذلك هو الحسن وهو ما جاء به الشرع نصا أو قياسا، أو اقتضته المقاصد الشرعية أو المصلحة العامة، التي ليس في الشرع ما يعارضها. والعرب تطلق المعروف على ما قابل المنكر أي وللنساء من الحقوق مثل الذي عليهن ملابسا ذلك دائما للوجه غير المنكر شرعا وعقلا، وتحت هذا تفاصيل كبيرة تؤخذ من الشريعة، وهي مجال لأنظار المجتهدين. في مختلف العصور والأقطار. فقول من يرى أن البنت البكر يجبرها أبوها على النكاح، قد سلبها حق المماثلة للابن، فدخل ذلك تحت الدرجة، وقول من منع جبرها وقال لا تزوج إلا برضاها قد أثبت لها

حق المماثلة للذكر، وقول من منع المرأة من التبرع بما زاد على ثلاثها إلا بإذن زوجها قد سلبها حق المماثلة للرجل، وقول من جعلها كالرجل في تبرعها بما لها قد أثبت لها حق المماثلة للرجل، وقول من جعل للمرأة حق الخيار في فراق زوجها إذا كانت به عاهة قد جعل لها حق المماثلة وقول من لم يجعل لها ذلك قد سلبها هذا الحق. وكل ينظر إلى أن ذلك من المعروف أو من المنكر. وهذا الشأن في كل ما أجمع عليه المسلمون من حقوق الصنفين، وما اختلفوا فيه من تسوية بين الرجل والمرأة، أو من تفرقة، كل ذلك منظور فيه إلى تحقيق قوله تعالى: بالمعروف قطعا أو ظنا فكونوا من ذلك بمحل التيقظ، وخذوا بالمعنى دون التلفظ.

ودين الإسلام حري بالعناية بإصلاح شأن المرأة، وكيف لا وهي نصف النوع الإنساني، والمربية الأولى، التي تفيض التربية السالكة إلى النفوس قبل غيرها، والتي تصادف عقولا لم تمسها وسائل الشر، وقلوبا لم تنفذ إليها خراطيم الشيطان. فإذا كانت تلك التربية خيرا، وصدقا، وصوابا، وحقا، كانت أول ما ينتقش في تلك الجواهر الكريمة، وأسبق ما يمتزج بتلك الفطر السليمة، فهيأت لأمثالها، من خواطر

الخير، منزلا رحبا، ولم تغادر لأغيارها من الشرور كرامة ولا حبا.". [1]

٩٧. ٢٥-"تعملون.

فحرف أم فيه بمعنى (بل) للانتقال ومعادل همزة الاستفهام المقدرة محذوف دل عليه قوله أما ذا كنتم تعملون. والتقدير: أكذبتم بآياتي أم لم تكذبوا فماذا كنتم تعملون إن لم

تكذبوا فإنكم لم توقنوا فماذا كنتم تعملون في مدة تكرير دعوتكم إلى الإسلام. ومن هنا حصل الإلجاء إلى الاعتراف بأنهم كذبوا.

ومن **لطائف** البلاغة أنه جاء بالمعادل الأول مصرحا به لأنه المحقق منهم فقال أكذبتم بآياتي وحذف معادله الآخر تنبيها على انتفائه كأنه قيل: أهو ما عهد منكم من التكذيب أم حدث حادث آخر، فجعل هذا المعادل مترددا فيه، وانتقل الكلام إلى استفهام. وهذا تبكيت لهم. قال في الكشاف» : «ومثاله أن تقول لراعيك وقد علمت أنه راعي سوء: أتأكل نعمي أم ماذا تعمل بها، فتجعل ما ابتدأت به وجعلته أساس كلامك هو الذي صح عندك من أكله وفساده وترمي بقولك: أم ماذا تعمل بها، مع علمك أنه لا يعمل بها إلا الأكل لتبهته. ويجوز أن يكون الاستفهام تقريريا وتكون أم متصلة وما بعدها هو معادل الاستفهام باعتبار المعنى كأنه قيل: أكذبتم أم لم تكذبوا فماذا كنتم تعملون إن لم تكذبوا فإنكم لم تتبعوا آياتي» .

وجملة ولم تحيطوا بها علما في موضع الحال، أي كذبتم دون أن تحيطوا علما بدلالة الآيات. وانتصب علما على أنه تمييز نسبة تحيطوا، أي لم يحط علمكم بها، فعدل عن إسناد الإحاطة إلى العلم إلى إسنادها إلى ذوات المخاطبين ليقع تأكيد الكلام بالإجمال في الإسناد ثم التفصيل بالتمييز.

وإحاطة العلم بالآيات مستعملة في تمكن العلم حتى كأنه ظرف محيط بها وهذا تعيير لهم وتوبيخ بأنهم كذبوا بالآيات قبل التدبر فيها.

وأما ذا استفهام واسم إشارة وهو بمعنى اسم الموصول إذا وقع بعد (ما) .

والمشار إليه هو مضمون الجملة بعده في قوله كنتم تعملون. ولكون المشار إليه في مثل هذا هو الجملة صار اسم الإشارة بعد الاستفهام في قوة موصول فكأنه قيل: ما الذي كنتم تعملون؟ فذلك معنى قول النحويين: إن (ذا) بعد (ما) و (من) الاستفهاميتين يكون بمعنى (ما) الموصولة فهو بيان معنى لا بيان

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٤٠٠

وضع.". (١)

٩٨. ٢٦-"«ليس ص من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم سجد فيها»

.

وفيه عن أبي سعيد الخدري قال: «قرأ رسول الله وهو على المنبر ص فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه فلما كان يوم آخر قرأها فلما بلغ السجدة تشزن الناس للسجود (أي تهيأوا وتحركوا لأجله) فقال رسول الله: إنما هي توبة نبيء ولكني رأيتكم تشزنتم للسجود فنزل فسجد وسجدوا»
، وقول أبي حنيفة فيها مثل قول مالك ولم ير الشافعي سجودا في هذه الآية إما لأجل
قول النبيء صلى الله عليه وسلم: «إنما هي توبة
نبيء»
فرجع أمرها إلى أنها شرع من قبلنا، والشافعي لا يرى شرع من قبلنا دليلا.
ووجه السجود فيها عند من رآه أن ركوع داود هو سجود شريعتهم فلما اقتدى به النبيء صلى الله عليه وسلم أتى في اقتدائه بما يساوي الركوع في شريعة الإسلام وهو السجود. وقال أبو حنيفة: الركوع يقوم مقام سجود التلاوة أخذا من هذه الآية.
واسم الإشارة في قوله: فغفرنا له ذلك إلى ما دلت عليه خصومة الخصمين من تمثيل ما فعله داود بصورة قضية الخصمين، وهذا من **لطائف** القرآن إذ طوى القصة التي تمثل له فيها الخصمان ثم أشار إلى المطوي باسم الإشارة، وأتبع الله الخبر عن الغفران له بما هو أرفع درجة وهو أنه من المقربين عند الله المرضي عنهم وأنه لم يوقف به عند حد الغفران لا غير. والزلفى: القربى، وهو مصدر أو اسم مصدر. وتأكيد الخبر لإزالة تو هم أن الله غضب عليه إذ فتنه تنزيلا لمقام الاستغراب منزلة مقام الإنكار.
والمئاب: مصدر ميمي بمعنى الأوب. وهو الرجوع. والمراد به: الرجوع إلى الآخرة. وسمي رجوعا لأنه رجوع إلى الله، أي إلى حكمة البحت ظاهرا وباطنا قال تعالى: إليه أدعوا وإليه مآب [الرعد: ٣٦] .

---

(١) التحرير والتنوير ٤١/٢٠

وحسن المئاب: حسن المرجع، وهو أن يرجع رجوعا حسنا عند نفسه وفي". [1]

٩٩. ٢٧-"وقد جاءت تربية الشريعة للأمة على ذم القنوط، قال تعالى حكاية عن إبراهيم قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون [الحجر: ٥٦] ،

وفي الحديث «انتظار الفرج بعد الشدة عبادة»

. فالآية وصفت خلقين ذميمين: أحدهما خلق البطر بالنعمة والغفلة عن شكر الله عليها. وثانيهما اليأس من رجوع النعمة عند فقدها. وفي نظم الآية **لطائف** من البلاغة:

الأولى: التعبير عن دوام طلب النعمة بعدم السآمة كما علمته.

الثانية: التعبير عن محبة الخير بدعاء الخير.

الثالثة: التعبير عن إضافة الضر بالمس الذي هو أضعف إحساس الإصابة قال تعالى: لا يمسهم السوء [الزمر: ٦١] .

الرابعة: اقتران شرط مس الشر ب إن التي من شأنها أن تدخل على النادر وقوعه فإن إصابة الشر الإنسان نادرة بالنسبة لما هو مغمور به من النعم.

الخامسة: صيغة المبالغة في فيؤس.

السادسة: إتباع يؤس ب قنوط الذي هو تجاوز إحساس اليأس إلى ظاهر البدن بالانكسار، وهو من شدة يأسه، فحصلت مبالغتان في التعبير عن يأسه بأنه اعتقاد في ضميره وانفعال في سحناته. فالمشرك يتأصل فيه هذا الخلق ويتزايد باستمرار الزمان.

والمؤمن لا تزال تربية الإيمان تكفه عن هذا الخلق حتى يزول منه أو يكاد.

ثم بينت الآية خلقا آخر في الإنسان وهو أنه إذا زال عنه كربه وعادت إليه النعمة نسي ما كان فيه من الشدة ولم يتفكر في لطف الله به فبطر النعمة، وقال: قد استرجعت خيراتي بحيلتي وتدبيري، وهذا الخير حق لي حصلت عليه، ثم إذا كان من أهل الشرك وهم المتحدث عنهم تراه إذا سمع إنذار النبيء صلى الله عليه وسلم بقيام الساعة أو هجس في نفسه هاجس عاقبة هذه الحياة قال لمن يدعوه إلى

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤١/٢٣

العمل ليوم". (١)

١٠٠. ٢٨-"جزاء ما كسبوا، أي في حال أن الجزاء واقع عليهم.

وجملة والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات حال من الظالمين، والواو واو الحال، أي ترى الظالمين في إشفاق في حال أن الذين آمنوا يطمئنون في روضات الجنات، وفي هذه الحال دلالة على أن الذين آمنوا قد استقروا في الروضات من قبل عرض الظالمين على الحساب وإشفاقهم من تبعاته. وهذا من تضاد شأني الفريقين في الآخرة على عكسه بما كانوا عليه في الدنيا المتقدم في قوله: يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها [الشورى: ١٨] ، أي فاليوم انقلب إشفاق المؤمنين اطمئنانا واطمئنان المشركين إشفاقا، وشتان بين الاطمئنانين والإشفاقين، وبهذه المضادة في الحالتين وأسبابهما صح اعتبار كينونة الذين آمنوا في الجنة حالا من الظالمين.

والروضات: جمع روضة، وهي اسم لمجموع ماء وشجر حاف به وخضرة حوله.

وجملة لهم ما يشاؤن عند ربهم خبر ثان عن الذين آمنوا، وعند ظرف متعلق بالكون الذي تعلق به الجار والمجرور في لهم ما يشاؤن.

والعندية تشريف لمعنى الاختصاص الذي أفادته اللام في قوله: لهم وعناية بما يعطونه من رغبة. والمعنى: ما يشاؤونه حق لهم محفوظ عند ربهم. ولا ينبغي جعل عند متعلقا بفعل يشاؤن لأن عند حينئذ تكون ظرفا لمشيئتهم، أي مشيئة منهم متوجهة إلى ربهم، فتؤول المشيئة إلى معنى الطلب أن يعطيهم ما يطلبون فيفوت قصد التشريف والعناية.

ولك أن تجعل عند ربهم خبرا ثالثا عن الذين آمنوا، أي هم عند ربهم، أي في ضيافته وقراه، كما قال تعالى: إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر [القمر: ٥٤، ٥٥] ، ويكون ترتيب الأخبار الثلاثة جاريا على نمط الارتقاء من الحسن إلى الأحسن بأن: أخبر عنهم بأنهم نزلوا في أحسن منزل، ثم أحضر لهم ما يشتهون، ثم ارتقى إلى ما هو أعظم وهو كونهم عند ربهم على حد قوله تعالى: ورضوان من الله أكبر [التوبة: ٧٢] . ومن **لطائف** هذا الوجه أنه جاء على الترتيب المعهود". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١١/٢٥

(٢) التحرير والتنوير ٧٩/٢٥

١٠١.   ٢٩-"خمسين صلاة ثم خفف الله منها حتى بلغت خمس صلوات وأنه سمع قوله تعالى: «أتممت فريضتي وخففت عن عبادي»

. وأشارت إليه سورة النجم [٦، ١٢] بقوله تعالى: فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على ما يرى. والقول بأنه سمع كلام الله ليلة أسري به إلى السماء مروي عن علي بن أبي طالب وابن مسعود وابن عباس وجعفر بن محمد الصادق والأشعري والواسطي، وهو الظاهر لأن فضل محمد صلى الله عليه وسلم على جميع المرسلين يستلزم أن يعطيه الله من أفضل ما أعطاه رسله عليهم السلام جميعا.

النوع الثالث: أن يرسل الله الملك إلى النبيء فيبلغ إليه كلاما يسمعه النبيء ويعيه، وهذا هو غالب ما يوجه إلى الأنبياء من كلام الله تعالى، قال تعالى في ذكر زكرياء فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيي [آل عمران: ٣٩] ، وقال في إبراهيم وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا [الصافات: ١٠٤، ١٠٥] وهذا الكلام يأتي بكيفية

وصفها النبيء صلى الله عليه وسلم للحارث بن هشام وقد سأل رسول الله «كيف يأتيك الوحي؟ فقال: أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه أي عن جبريل ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول»

. فالرسول في قوله تعالى: أو يرسل رسولا: هو الملك جبريل أو غيره، وقوله:

فيوحي بإذنه ما يشاء سمى هذا الكلام وحيا على مراعاة الإطلاق القرآني الغالب كما تقدم نحو قوله: وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى [النجم: ٣- ٥] وهو غير المراد من قوله: إلا وحيا بقرينة التقسيم والمقابلة.

ومن **لطائف** نسج هذه الآية ترتيب ما دل على تكليم الله الرسل بدلالات فجيء بالمصدر أولا في قوله: إلا وحيا وجيء بما يشبه الجملة ثانيا وهو قوله: من وراء حجاب، وجيء بالجملة الفعلية ثالثا بقوله: يرسل رسولا. وقرأ نافع أو يرسل برفع يرسل على الخبرية، والتقدير: أو هو". (١)

١٠٢.   ٣٠-"والقرب هنا كناية عن إحاطة العلم بالحال لأن القرب يستلزم الاطلاع، وليس هو قربا بالمكان بقرينة المشاهدة فآل الكلام إلى التشبيه البليغ تشبيه معقول بمحسوس، وهذا من بناء التشبيه

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥/١٤٤

على الكناية بمنزلة بناء المجاز على المجاز.

ومن **لطائف** هذا التمثيل أن حبل الوريد مع قربه لا يشعر الإنسان بقربه لخفائه، وكذلك قرب الله من الإنسان بعلمه قرب لا يشعر به الإنسان فلذلك اختير تمثيل هذا القرب بقرب حبل الوريد. وبذلك فاق هذا التشبيه لحالة القرب كل تشبيه من نوعه ورد في كلام البلغاء. مثل قولهم: هو منه مقعد القابلة ومعقد الإزار، وقول زهير:

فهن ووادي الرس كاليد للفم وقول حنظلة بن سيار وهو حنظلة بن ثعلبة بن سيار العجلي مخضرم:

كل امرئ مصبح في إهله ... والموت أدنى من شراك نعله

[١٧، ١٨]

[سورة ق (٥٠) : الآيات ١٧ إلى ١٨]

إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد (١٧) ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد (١٨)

يتعلق إذ بقوله أقرب [ق: ١٦] لأن اسم التفضيل يعمل في الظرف وإن كان لا يعمل في الفاعل ولا في المفعول به واللغة تتوسع في الظروف والمجرورات ما لا تتوسع في غيرها، وهذه قاعدة مشهورة ثابتة والكلام تخلص للموعظة والتهديد بالجزاء يوم البعث والجزاء من إحصاء الأعمال خيرها وشرها المعلومة من آيات كثيرة في القرآن. وهذا التخلص بكلمة إذ الدالة على الزمان من ألطف التخلص.

وتعريف المتلقيان تعريف العهد إذا كانت الآية نزلت بعد آيات ذكر فيها الحفظة،

أو تعريف الجنس، والتثنية فيها للإشارة إلى أن هذا الجنس مقسم اثنين اثنين.

والتلقي: أخذ الشيء من يد معطيه. استعير لتسجيل الأقوال والأعمال حين صدورها من الناس.". (١)

١٠٣. ٣١-"وقوله: منه صفة ل نذير قدمت على الموصوف فصارت حالا.

وحرف (من) للابتداء المجازي، أي مأمور له بأن أبلغكم.

وعطف ولا تجعلوا مع الله إلها آخر على ففروا إلى الله نهي عن نسبة الإلهية إلى أحد غير الله. فجمع بين الأمر والنهي مبالغة في التأكيد بنفي الضد لإثبات ضده كقوله: وأضل فرعون قومه وما هدى

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠١/٢٦

[طه: ٧٩] .

ومن لطائف فخر الدين أن قوله تعالى: إني لكم منه نذير جمع الرسول والمرسل إليهم والمرسل. [٥٢]

[سورة الذاريات (٥١) : آية ٥٢]

كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون (٥٢)

كلمة كذلك فصل خطاب تدل على انتهاء حديث والشروع في غيره، أو الرجوع إلى حديث قبله أتى عليه الحديث الأخير. والتقدير: الأمر كذلك. والإشارة إلى ما مضى من الحديث، ثم يورد بعده حديث آخر والسامع يرد كلا إلى ما يناسبه، فيكون ما بعد اسم الإشارة متصلا بأخبار الأمم التي تقدم ذكرها من قوم لوط ومن عطف عليهم.

أعقب تهديد المشركين بأن يحل بهم ما حل بالأمم المكذبين لرسل الله من قبلهم بتنظيرهم بهم في مقالهم، وقد تقدم ورود كذلك فصلا للخطاب عند قوله تعالى:

كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا في سورة الكهف [٩١] ، فقوله: كذلك فصل وجملة ما أتى الذين من قبلهم من رسول الآية مستأنفة استئنافا ابتدائيا.

ولك أن تجعل قوله: كذلك ما أتى الذين من قبلهم إلخ مبدأ استئناف عودا إلى الإنحاء على المشركين في قولهم المختلف بأنواع التكذيب في التوحيد والبعث وما يتفرع على ذلك.". (١)

١٠٤. ٣٢-"إذ كان الرجال الكافرون يظنون أن العصمة التي لهم على أزواجهم المؤمنات مثبتة أنهم حل لهم.

وعبر عن الثانية بجملة ولا هم يحلون لهن فعكس الإخبار بالحل إذ جعل خبرا عن ضمير الرجال، وعدي الفعل إلى المحلل باللام داخلة على ضمير النساء فأفاد أنهم لا يحل لهن أزواجهن الكافرون ولو بقي الزوج في بلاد الإسلام.

ولهذا ذكرت الجملة الثانية ولا هم يحلون لهن كالتتمة لحكم الجملة الأولى، وجيء في الجملة الثانية بالمسند فعلا مضارعا لدلالته على التجدد لإفادة نفي الطماعية في التحليل ولو بتجدده في الحال

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/٢٧

بعقد جديد أو اتفاق جديد على البقاء في دار الإسلام خلافا لأبي حنيفة إذ قال: إن موجب الفرقة هو اختلاف الدارين لا اختلاف الدين.

ويجوز في الآية وجه آخر وهو أن يكون المراد تأكيد نفي الحال فبعد أن قال: لا هن حل لهم وهو الأصل كما علمت آنفا أكد بجملة ولا هم يحلون لهن أي أن انتفاء الحل حاصل من كل جهة كما يقال: لست منك ولست مني.

ونظيره قوله تعالى: هن لباس لكم وأنتم لباس لهن في سورة البقرة [١٨٧] تأكيدا لشدة التلبس والاتصال من كل جهة.

وفي الكلام محسن العكس من المحسنات البديعية مع تغيير يسير بين حل ويحلون اقتضاه المقام، وإنما يوفر حظ التحسين بمقدار ما يسمح له به مقتضى حال البلاغة.

وآتوهم ما أنفقوا.

المراد ب ما أنفقوا ما أعطوه من المهور، والعدول عن إطلاق اسم المهور والأجور على ما دفعه المشركون لنسائهم اللاء أسلمن من **لطائف** القرآن لأن أولئك النساء أصبحن غير زوجات. فألغي إطلاق اسم المهور على ما يدفع لهم.". (١)

١٠٥. ٣٣-"بعضهم: افتخر اليهود بأنهم أهل كتاب.

والعرب لا كتاب لهم. فأبطل الله ذلك بشبههم بالحمار يحمل أسفارا.

ومعنى حملوا: عهد بها إليهم وكلفوا بما فيها فلم يفوا بما كلفوا، يقال: حملت فلانا أمر كذا فاحتمله، قال تعالى: إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا سورة الأحزاب [٧٢] .

وإطلاق الحمل وما تصرف منه على هذا المعنى استعارة، بتشبيه إيكال الأمر بحمل الحمل على ظهر الدابة، وبذلك كان تمثيل حالهم بحال الحمار يحمل أسفارا تمثيلا للمعنى المجازي بالمعنى الحقيقي. وهو من **لطائف** القرآن.

وثم للتراخي الرتبي فإن عدم وفائهم بما عهد إليهم أعجب من تحملهم إياه.

وجملة يحمل أسفارا في موضع الحال من الحمار أو في موضع الصفة لأن تعريف الحمار هنا تعريف

---

(١) التحرير والتنوير ١٥٨/٢٨

جنس فهو معرفة لفظا نكرة معنى، فصح في الجملة اعتبار الحالية والوصف.

وهذا التمثيل مقصود منه تشنيع حالهم وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس المتعارف، ولذلك ذيل بذم حالهم بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله.

وبئس فعل ذم، أي ساء حال الذين كذبوا بكتاب الله فهم قد ضموا إلى جهلهم بمعاني التوراة تكذيبا بآيات الله وهي القرآن.

ومثل القوم، فاعل بئس. وأغنى هذا الفاعل عن ذكر المخصوص بالذم لحصول العلم بأن المذموم هو حال القوم المكذبين فلم يسلك في هذا التركيب طريق الإبهام على شرط التفسير لأنه قد سبقه ما بينه بالمثل المذكور قبله في قوله: كمثل الحمار يحمل أسفارا. فصار إعادة لفظ المثل ثقيلا في الكلام أكثر من ثلاث مرات.

وهذا من تفننات القرآن. والذين كذبوا صفة القوم.

وجملة والله لا يهدي القوم الظالمين تذييل إخبارا عنهم بأن سوء حالهم لا يرجى لهم منه انفكاك لأن الله حرمهم اللطف والعناية بإنقاذهم لظلمهم بالاعتداء". (١)

١٠٦. ٣٤-"وانتصب فعل فأصدق على إضمار (أن) المصدرية إضمارا واجبا في جواب الطلب.

وأما قوله: وأكن فقد اختلف فيه القراء.

فأما الجمهور فقرأوه مجزوما بسكون آخره على اعتباره جوابا للطلب مباشرة لعدم وجود فاء السببية فيه، واعتبار الواو عاطفة جملة على جملة وليست عاطفة مفردا على مفرد. وذلك لقصد تضمين الكلام معنى الشرط زيادة على معنى التسبب فيغني الجزم عن فعل شرط. فتقديره: إن تؤخرني إلى أجل قريب أكن من الصالحين، جمعا بين التسبب المفاد بالفاء، والتعليق الشرطي المفاد بجزم الفعل.

وإذا قد كان الفعل الأول هو المؤثر في الفعلين الواقع أحدهما بعد فاء السببية والآخر بعد الواو العاطفة عليه. فقد أفاد الكلام التسبب والتعليق في كلا الفعلين وذلك يرجع إلى محسن الاحتباك. فكأنه قيل: لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكون من الصالحين. إن تؤخرني إلى أجل قريب أصدق وأكن من الصالحين.

ومن لطائف هذا الاستعمال أن هذا السائل بعد أن حث سؤاله أعقبه بأن الأمر ممكن فقال: إن

(١) التحرير والتنوير ٢١٤/٢٨

تؤخرني إلى أجل قريب أصدق وأكن من الصالحين. وهو من بدائع الاستعمال القرآني لقصد الإيجاز وتوفير المعاني.

ووجه أبو علي الفارسي والزجاج قراءة الجمهور بجعل وأكن معطوفا على محل فأصدق. وقرأه أبو عمرو وحده من بين العشرة وأكون بالنصب والقراءة رواية متواترة وإن كانت مخالفة لرسم المصاحف المتواترة. وقيل: إنها يوافقها رسم مصحف أبي بن كعب ومصحف ابن مسعود.

وقرأ بذلك الحسن والأعمش وابن محيض من القراءات غير المشهورة، ورويت عن مالك بن دينار وابن جبير وأبي رجاء. وتلك أقل شهرة.

واعتذر أبو عمرو عن مخالفة قراءته للمصحف بأن الواو حذفت في الخط اختصارا يريد أنهم حذفوا صورة إشباع الضمة وهو الواو اعتمادا على نطق القارئ". (١)

١٠٧. ٣٥-"ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل [الروم: ٥٨] . ونحو ذلك وتقديم المجرور باللام على المفعول للاهتمام بإيقاظ الذين كفروا.

فمعنى ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأت نوح وامرأت لوط، أن الله جعل حالة هاتين المرأتين عظة وتنبيها للذين كفروا، أي ليذكرهم بأن الله لا يصرفه عن وعيده صارف فلا يحسبوا أن لهم شفعاء عند الله، ولا أن مكانهم من جوار بيته وعمارة مسجده وسقاية حجيجه تصرف غضب الله عنهم، فإن هم أقلعوا عن هذا الحسبان أقبلوا على التدبر في النجاة من وعيده بالنظر في دلائل دعوة القرآن وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم فلو كان صارف يصرف الله عن غضبه لكان أولى الأشياء بذلك مكانة هاتين المرأتين من زوجيهما رسولي رب العالمين.

ومناسبة ضرب المثل بامرأة نوح وامرأة لوط دون غيرهما من قرابة الأنبياء نحو أبي إبراهيم وابن نوح عليهما السلام لأن ذكر هاتين المرأتين لم يتقدم. وقد تقدم ذكر أبي إبراهيم وابن نوح، لتكون في ذكرهما فائدة مستجدة، وليكون في ذكرهما عقب ما سبق من تمالؤ أمي المؤمنين على زوجهما صلى الله عليه وسلم تعريض لطيف بالتحذير من خاطر الاعتزاز بغناء الصلة الشريفة عنهما في الوفاء بحق ما يجب من الإخلاص للنبيء صلى الله عليه وسلم ليكون الشبه في التمثيل أقوى. فعن مقاتل «يقول الله سبحانه لعائشة وحفصة: لا تكونا بمنزلة امرأة نوح وامرأة لوط في المعصية وكونا بمنزلة امرأة فرعون

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥٤/٢٨

ومريم» . ووضحه في «الكشاف» بأنه من قبيل التعريض. ومنعه الفخر، وقال ابن عطية: «قال بعض الناس في المثلين عبرة لزوجات النبيء صلى الله عليه وسلم حين تقدم عتابهن. وفي هذا بعد لأن النص أنه للكفار يبعد هذا» اه.

ويدفع استبعاده أن دلالة التعريض لا تنافي اللفظ الصريح، ومن **لطائف** التقييد بقوله تعالى: للذين كفروا أن المقصد الأصلي هو ضرب المثل للذين كفروا وذلك من الاحتراس من أن تحمل التمثيل على المشابهة من جميع الوجوه والاحتراس بكثرة

التشبيهات ومنه تجريد الاستعارة.

وقصة امرأة نوح لم تذكر في القرآن في غير هذه الآية والذي يظهر أنها خانت زوجها بعد الطوفان وأن نوحا لم يعلم بخونها لأن الله سمى عملها خيانة.

وقد ورد في سفر التكوين من التوراة ذكر امرأة نوح مع الذين ركبوا السفينة". (١)

١٠٨. ٣٦-"الناس بصغار العلم قبل كباره. ووقع هذا التفسير في «صحيح البخاري» . وقد تقدم عند قوله تعالى: ولكن كونوا ربانيين في سورة آل عمران [٧٩] .

والأحبار جمع حبر، وهو العالم في الملة الإسرائيلية، وهو- بفتح الحاء وكسرها-، لكن اقتصر المتأخرون على الفتح للتفرقة بينه وبين اسم المداد الذي يكتب به. وعطف الربانيون والأحبار على النبيون لأنهم ورثة علمهم وعليهم تلقوا الدين.

والاستحفاظ: الاستئمان، واستحفاظ الكتاب أمانة فهمه حق الفهم بما دلت عليه آياته. استعير الاستحفاظ الذي هو طلب الحفظ لمعنى الأمر بإجادة الفهم والتبليغ للأمة على ما هو عليه.

فالباء في قوله بما استحفظوا للملابسة، أي حكما ملابسا للحق متصلا به غير مبدل ولا مغير ولا مؤول تأويلا لأجل الهوى. ويدخل في الاستحفاظ بالكتاب الأمر بحفظ ألفاظه من التغيير والكتمان.

ومن **لطائف** القاضي إسماعيل بن إسحاق بن حماد ما حكاه عياض في «المدارك» ، عن أبي الحسن بن المنتاب، قال: كنت عند إسماعيل يوما فسئل: لم جاز التبديل على أهل التوراة ولم يجز على أهل القرآن، فقال: لأن الله تعالى قال في أهل التوراة بما استحفظوا من كتاب الله فوكل الحفظ إليهم. وقال في القرآن:

---

(١) التحرير والتنوير ٣٧٤/٢٨

إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون [الحجر: ٩] . فتعهد الله بحفظه فلم يجز التبديل على أهل القرآن.
قال: فذكرت ذلك للمحاملي، فقال: لا أحسن من هذا الكلام.
ومن مبينة لإبهام (ما) في قوله: بما استحفظوا. وكتاب الله هو التوراة، فهو من الإظهار في مقام الإضمار، ليتأتى التعريف بالإضافة المفيدة لتشريف التوراة وتمجيدها بإضافتها إلى اسم الله تعالى.
وضمير وكانوا للنبيئين والربانيين والأحبار، أي وكان المذكورون شهداء على كتاب الله، أي شهداء على حفظه من التبديل، فحرف (على) هنا دال على معنى التمكن وليس هو (على) الذي يتعدى به فعل شهد، إلى المحقوق كما يتعدى". (١)

١٠٩. ٣٧-"بحال من يحمل حملا ثقيلا. وذكر على ظهورهم هنا مبالغة في تمثيل الحالة، كقوله تعالى: وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم [الشورى: ٣٠] . فذكر الأيدي لأن الكسب يكون باليد، فهو يشبه تخييل الاستعارة ولكنه لا يتأتى التخييل في التمثيلية لأن ما يذكر فيها صالح لاعتباره من جملة الهيئة، فإن الحمل على الظهر مؤذن بنهاية ثقل المحمول على الحامل.
ومن لطائف التوجيه وضع لفظ الأوزار في هذا التمثيل فإنه مشترك بين الأحمال الثقيلة وبين الذنوب، وهم إنما وقعوا في هذه الشدة من جراء ذنوبهم فكأنهم يحملونها لأنهم يعانون شدة آلامها.
وجملة: ألا ساء ما يزرون تذييل. و (ألا) حرف استفتاح يفيد التنبيه للعناية بالخبر. وساء ما يزرون إنشاء ذم. ويزرون بمعنى يحملون، أي ساء ما يمثل من حالهم بالحمل. وما يزرون فاعل ساء. والمخصوص بالذم محذوف، تقديره:
حملهم.
[٣٢]

[سورة الأنعام (٦) : آية ٣٢]
وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون (٣٢)
لما جرى ذكر الساعة وما يلحق المشركين فيها من الحسرة على ما فرطوا ناسب أن يذكر الناس بأن الحياة الدنيا زائلة وأن عليهم أن يستعدوا للحياة الآخرة. فيحتمل أن يكون جوابا لقول المشركين: إن

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠٩/٦

هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين [الأنعام: ٢٩] .
فتكون الواو للحال، أي تقولون إن هي إلا حياتنا الدنيا ولو نظرتم حق النظر لوجدتم الحياة الدنيا لعبا ولهوا وليس فيها شيء باق، فلعلمتم أن وراءها حياة أخرى فيها من الخيرات ما هو أعظم مما في الدنيا وإنما يناله المتقون، أي المؤمنون، فتكون الآية إعادة لدعوتهم إلى الإيمان والتقوى، ويكون الخطاب في قوله: أفلا تعقلون التفاتا من الحديث عنهم بالغيبة إلى خطابهم بالدعوة.". (١)

١١٠. ٣٨-"واستعيرت السرعة لعدم التردد ولتمام المقدرة على العقاب، لأن شأن المتردد أو العاجز أن يتريث وأن يخشى غائلة المعاقب، فالمراد سريع العقاب في يوم العقاب، وليس المراد سريعه من الآن حتى يؤول بمعنى: كل آت قريب، إذ لا موقع له هنا.
ومن لطائف القرآن الاقتصار في وصف (سريع العقاب) على موكد واحد، وتعزيز وصف (الغفور الرحيم) بمؤكدات ثلاثة وهي إن، ولام الابتداء، والتوكيد اللفظي لأن (الرحيم) يؤكد معنى (الغفور) : ليطمئن أهل العمل الصالح إلى مغفرة الله ورحمته، وليستدعي أهل الإعراض والصدوف، إلى الإقلاع عما هم فيه.". (٢)

١١١. ٣٩-"التي أهلته لسيادة هذا العالم والتغلب على مصاعبه، وليس المراد من التمكين هنا القوة والحكم كالمراد في قوله تعالى: إنا مكنا له في الأرض [الكهف: ٨٤] لأن ذلك ليس حاصلا بجميع البشر إلا على تأويل، وليس المراد بالتمكين أيضا معناه الحقيقي وهو جعل المكان في الأرض لأن قوله: في الأرض يمنع من
ذلك، لأنه لو كان كذلك لقال ولقد مكناكم الأرض، وقد قال تعالى عن عاد: ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه [الأحقاف: ٢٦] أي جعلنا ما أقررناهم عليه أعظم مما أقدرناكم عليه، أي في آثارهم في الأرض أما أصل القرار في الأرض فهو صراط بينهما.
ومعايش جمع معيشة، وهي ما يعيش به الحي من الطعام والشراب، مشتقة من العيش وهو الحياة، وأصل المعيشة اسم مصدر عاش قال تعالى: فإن له معيشة ضنكا [طه: ١٢٤] سمي به الشيء الذي

---

(١) التحرير والتنوير ١٩٢/٧

(٢) التحرير والتنوير ٨-أ/٢١٢

يحصل به العيش، تسمية للشيء باسم سببه على طريقة المجاز الذي غلب حتى صار مساويا للحقيقة. وياء (معايش) أصل في الكلمة لأنها عين الكلمة من المصدر (عيش) فوزن معيشة مفعلة ومعايش مفاعل، فحقها أن ينطق بها في الجمع ياء وأن لا تقلب همزة. لأن استعمال العرب في حرف المد الذي في المفرد أنهم إذا جمعوه جمعا بألف زائدة ردوه إلى أصله واوا أو ياء بعد ألف الجمع، مثل: مفازة ومفاوز، فيما أصله واو من الفوز ومعيبة ومعايب فيما أصله الياء، فإذا كان حرف المد في المفرد غير أصلي فإنهم إذا جمعوه جمعا بألف زائدة قلبوا حرف المد همزة نحو قلادة وقلائد، وعجوز وعجائز، وصحيفة وصحائف، وهذا الاستعمال من **لطائف** التفرقة بين حرف المد الأصلي والمد الزائد واتفق القراء على قراءته بالياء، وروى خارجة بن مصعب، وحميد بن عمير، عن نافع أنه قرأ: معائش بهمز بعد الألف، وهي رواية شاذة عنه لا يعبأ بها، وقرىء في الشاذ: بالهمز، رواه عن الأعرج، وفي «الكشاف» نسبة هذه القراءة إلى ابن عامر وهو سهو من الزمخشري.". (١)

١١٢. ٤٠-"تنتابهم متوالية من صحة وخصب ورخاء ورفاهية. وجيء في جانب السيئة بحرف (إن) لأن الغالب أن تدل (إن) على التردد في وقوع الشرط، أو على الشك، ولكون الشيء النادر الحصول غير مجزوم بوقوعه، ومشكوكا فيه، جيء في شرط إصابة السيئة بحرف (إن) لندرة وقوع السيئات أي: المكروهات عليهم، بالنسبة إلى الحسنات، أي: النعم، وفي ذلك تعريض بأن نعم الله كانت متكاثرة لديهم وأنهم كانوا معرضين عن الشكر، وتعريض بأن إصابتهم بالسيئات نادرة وهم يعدون السيئات من جراء موسى ومن آمن معه، فهم في كلتا الحالتين بين كافرين بالنعمة وظالمين لموسى ومن معه، ولهذين الاعتبارين عرفت الحسنة تعريف الجنس المعروف في علم المعاني بالعهد الذهني، أي: جاءتهم الحسنات، لأن هذا الجنس محبوب مألوف كثير الحصول لديهم، ونكرت سيئة لندرة وقوعها عليهم، ولأنها شيء غير مألوف حلوله بهم، أي: وإن تصبهم آية سيئة، كذا في «الكشاف» و «المفتاح» . واعلم أن التفرقة بين تعريف الجنس والتنكير من **لطائف** الاستعمال البلاغي، كما أشرنا إليه في قوله تعالى: الحمد لله في سورة الفاتحة [٢] ، وأما من جهة مفاد اللفظ، فالمعرف بلام الجنس والمنكرة سواء، فلا تظن أن اللام للعهد لحسنة معهودة ووقوع المعرف بلام الجنس والنكرة في سياق الشرط، في هذه الآية يعم كل حسنة وكل سيئة.

---

(١) التحرير والتنوير ٨-ب/٣٤

والحسنة والسيئة هنا مراد بهما الحالة الحسنة والحالة السيئة.

واللام في قوله لنا هذه لام الاستحقاق أي: هذه الحسنة حق لنا، لأنهم بغرورهم يحسبون أنهم أحرياء بالنعم، أي: فلا يرون تلك الحسنة فضلا من الله ونعمة.

ويطيروا أصله يتطيروا، وهو تفعل، مشتق من اسم الطير، كأنهم صاغوه على وزن التفعل لما فيه من تكلف معرفة حظ المرء بدلالة حركات الطير، أو هو مطاوعة سمي بها ما يحصل من الانفعال من إثر طيران الطير. وكان العرب إذا خرجوا في سفر لحاجة، نظروا إلى ما يلاقيهم أول سيرهم من طائر، فكانوا يزعمون أن في مروره علامات يمن وعلامات شؤم، فالذي في طيرانه علامة يمن في اصطلاحهم يسمونه السانح، وهو الذي ينهض فيطير من جهة اليمين للسائر والذي علامته الشؤم هو البارح وهو الذي يمر على اليسار، وإذا وجد السائر طيرا جاثما أثاره لينظر أي جهة يطير، وتسمى تلك الإثارة زجرا، فمن الطير ميمون ومنه مشؤوم". (١)

١١٣. ٤١-"معنى ليحق الحق، لأنه إذا حصل الحق ذهب الباطل كما قال تعالى: بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق [الأنبياء: ١٨] ، ولما كان الباطل ضد الحق لزم من ثبوت أحدهما انتفاء الآخر. ومن لطائف عبد الله بن عباس أنه قال لعمر بن أبي ربيعة: كم سنك فقال ابن أبي ربيعة ولدت يوم مات عمر بن الخطاب، فقال ابن عباس: «أي حق رفع وأي باطل وضع» أي في ذلك اليوم، ففائدة قوله: ويبطل الباطل التصريح بأن الله لا يرضى بالباطل، فكان ذكر بعد قوله: ليحق الحق بمنزلة التوكيد لقوله ليحق الحق لأن ثبوت الشيء قد يؤكد بنفي ضده كقوله تعالى: قد ضلوا وما كانوا مهتدين [الأنعام: ١٤٠] .

ويجيء في قوله: ويبطل الباطل من معنى الكلام، ومن جناس الاشتقاق، ما جاء في قوله: أن يحق الحق ثم في مقابلة قوله: ليحق الحق- بقوله- ويبطل الباطل محسن الطباق.

ولو كره المجرمون شرط اتصالي. ولو اتصالية تدل على المبالغة في الأحوال، وهو عطف على يريد الله، أو على ليحق الحق أي يريد ذلك لذلك لا لغيره، ولا يصد مراده ما للمعاندين من قوة بأن يكرهه المجرمون وهم المشركون.

والكراهة هنا كناية عن لوازمها وهي الاستعداد لمقاومة المراد من تلك الإرادة، فإن المشركين، بكثرة

---

(١) التحرير والتنوير ٩/٦٥

عددهم وعددهم، يريدون إحقاق الباطل، وإرادة الله تنفذ بالرغم على كراهة المجرمين، وأما مجرد الكراهة فليس صالحا أن يكون غاية للمبالغة في أحوال نفوذ مراد الله تعالى إحقاق الحق: لأنه إحساس قاصر على صاحبه، ولكنه إذا بعثه على مدافعة الأمر المكروه كانت أسباب المدافعة هي الغاية لنفوذ الأمر المكروه على الكاره.

وتقدم الكلام على لو الاتصالية عند قوله تعالى: ولو افتدى به في سورة آل عمران [٩١] وقوله تعالى: أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا في سورة البقرة [١٧٠] .

[٩]

[سورة الأنفال (٨) : آية ٩]

إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين (٩)

يتعلق ظرف إذ تستغيثون ربكم بفعل يريد الله [الأنفال: ٧] لأن إرادة الله مستمر تعلقها". (١)

(١) التحرير والتنوير ٢٧٣/٩